نبيل مرعى

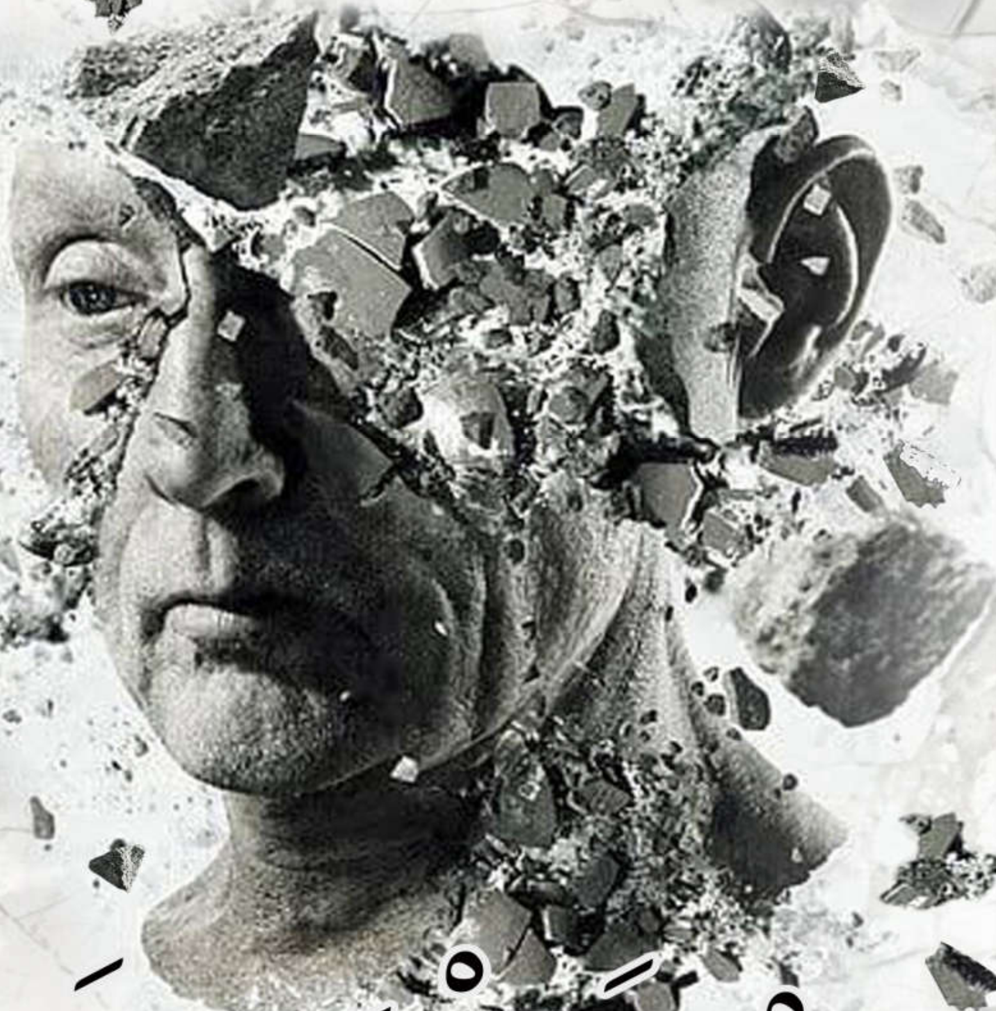

مجموعة قصصية

إسْتَانْجَلِينَا

حكايا ألم وأمل

إسْتَانْجَلِينَا

حكايا ألم وأمل

الطبعة الأولى

١٤٤٢هـ – ٢٠٢١م

كافة الحقوق محفوظة

مؤسسة الأمة العربية
للنشر والتوزيع

مجموعة قصصية : إستانجلينا

المؤلف : نبيل مرعى

تصميم الغلاف والتنسيق : المؤلف

رقم الإيداع :

الترقيم الدولى :

الناشر : دار الأمة العربية للنشر والتوزيع

١٤٤٢هـ - ٢٠٢١ م

الطبعة الأولى

تنبيه

جميع الحقوق محفوظة للمؤلف ولا يسمح بإعادة نشر أو إصدار هذا الكتاب ، أو أى جزء منه أو تقليده أو تخزينه فى نطاق إعادة المعلومات ، أو نقله بأى شكل من الأشكال دون إذن مسبق موقع من المؤلف

الناشر

مؤسسة الأمة للنشر والتوزيع

هواتف : ٣٥٧١٢٢٣- ٠٤٨-٠٠٢

المبيعات : تحويل داخلى ١٣

الفاكس : تحويل داخلى ١٤

إدارة النشر : ٠٠٢٠١١٤٢٠٢٢١٧٤

إِسْتَانْجَلِينَا

حكايا ألم وأمل

مجموعة قصصية

تأليف

نبيل مرعى

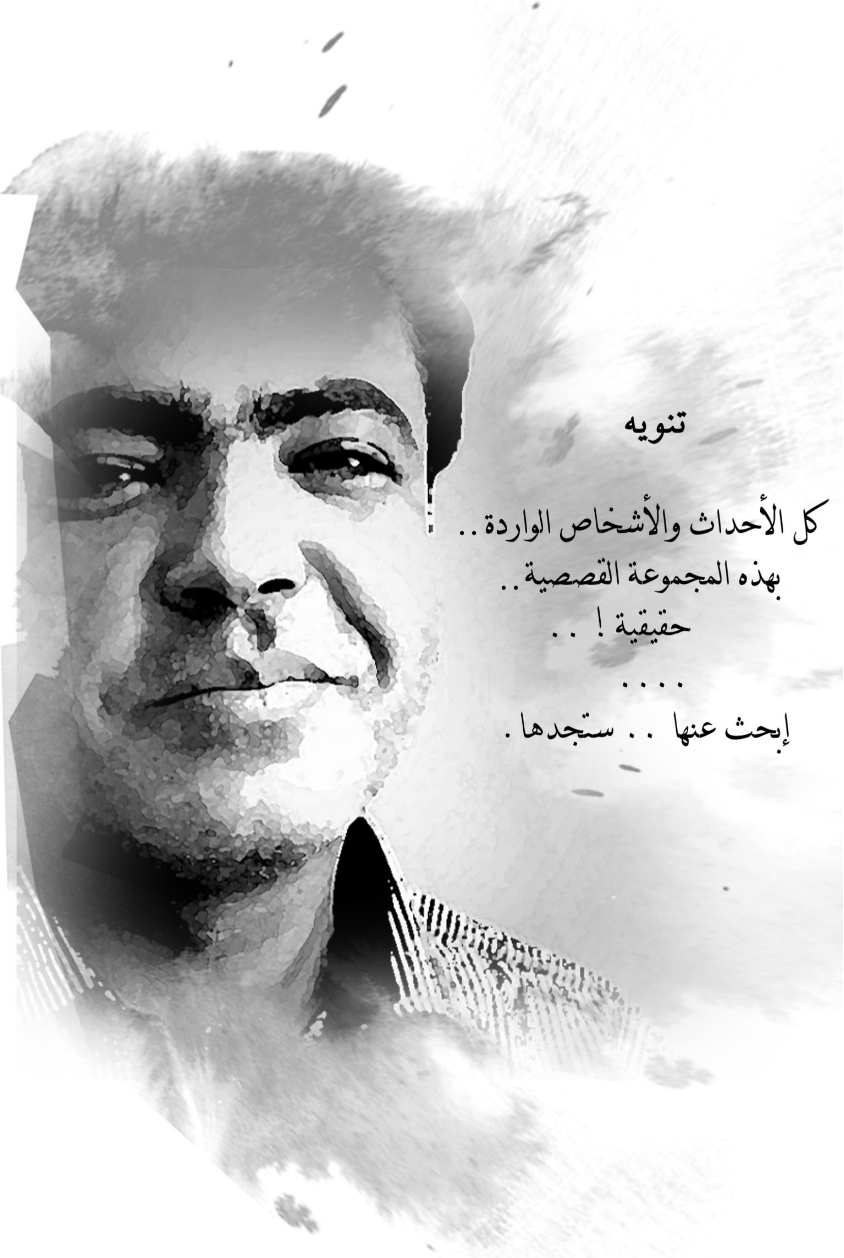

تنويه

كل الأحداث والأشخاص الواردة ..
بهذه المجموعة القصصية ..
حقيقية ! . .
. . . .
إبحث عنها . . ستجدها .

الفهـــرس

- تنـويه ٥
- **الباب الأول .. إغتراب**
  - الشاطئ الأخر ٩
  - ناس شايفاك ٢٥
  - مات وحيدا ٣٧
  - يوما أخر " مستوحاه " ٦١
- **الباب الثانى .. القصص الكبيرة**
  - صرصار القهاوى ٧٧
  - أصل الحكاية ١٠٧
  - كنز الأعاجم ١٢٩
  - السر المصون ١٤٧
  - إلى أسفل سافلين ١٧٩
  - عم فُرات ٢٠٣
  - مناوشة " حكاية قصة " ٢١٩

الباب الأول

إقتراب

الشاطئ الأخر

ترك فرات دوامه بالمطبخ فى المطعم العتيق .. وخرج غاضبا ، والدماء تفور وتغلى فى عروقه ..

بعد ما ألقى رئيس الوردية طاولة الطعام التى أعدها لأحد الزبائن .. فى صندوق القمامة ، وتكبد فرات ثمنها بالكامل ..

....

خرج ثائرا من الباب الخلفى إلى الشارع القديم .. الغاص بمياه الأمطار ، كان الصقيع حادا .. ولسعات البرد والزمهرير جامحة ، والسديم والريح يبشران بالغيث ..

نظر متحسرا ..

بضع الدمع وطافت عيناه الزائغتان بوشائج الشارع يمنة ويسارا .. كان مكتظا بالسيارات والمارين هنا وهناك ..كعادة هذا المكان ، المشاهد غارقة فى الشفافيات الباردة ..

وتذكر أول يوم له فى هذا الحى ..

ظل يحملق فى مبانيه .. واجهات العمائر والحوانيت .. والشرفات المطلة المتهالكة ذات الطابع الكلاسيكى ، هذه المرة يبصر

التفاصيل بجلاء .. وما وراء التفاصيل ، لكم مر بهذا الشارع عابرا طوال سنوات مديدة ..دون أن تسترعى إنتباهة ..

والأن يرى كل شيئ واضحا .. صارخا .. جليا ، تأمل مليا كم بدى كل ما حوله قبيحا ومقيتا .. هو نفسه كان مبهورا بكل زاوية به .. فى بداية عمله وإقامته ..

إندفع سائرا .. يخترق الشارع بخطوات متخبطة غاضبة وثائرة ، وقلبه يفور فوران البركان .. يكاد الشهيق والسعال الأبح الأجش أن يفتك برئتيه ، وعقله مكتظا بالأفكار السوداء والبائسة ، فبعد عشرين عاما فى تلك البلدة .. لم يحقق شيئ ، لم يجنى سوى الإهانة وإنعدام القيمة .. وما بقى إلا أن يلعق نعال روادها ، ويأوى حاويات القمامة والحسافة ..

ظل ماشيا .. تصطك أسنانه من شدة البرد .. وتتخبط قدماه ، دفعته خطاه إلى حيث يقطن هو وإثنان من زملاءه فى غرفة ببنسيون .. خارج الدنيا ، لا يمت للأدمية بصلة ..

وبعد عدة خطوات أمام المدخل ..وقف يائسا .. ينظر إلى المبنى الشاهق العتيق ، وتردد قليلا .. وتواترت قدماه حائرة .. تائهة ،

فلقد نفذ الصبر من صدره .. ثم تنهد وأطرق محبطا ضائقا .. وطأطأ رأسه عائدا أدراجه ..
طفقت نفسه تنازعه وتؤنبه ، لقد أعياها القنوط .. وبات يمضغ حقدا أسودا ويجتر العذاب ، ويضعضع جأشه الإنكسار ووحشة المجهول ، وحديثا للذات محتدما ..
إنتهى ممشاه تلك المرة إلى مقهى قديم بالقرب من ناصية الحى ، إنكب على أحد المقاعد المبتلة محتضنا رأسه بين راحتيه .. والأفكار اليائسة مازالت تتلاعب بلبه ، بداخله دراما مبكية .. أصوات ومشاهد متلاحقة ومتسارعة ، تصارعه وتقاضيه ..
حدق مليا فى جوف المقهى ، أبصر الأعمدة الكلاسيكية الموزوعة فى الأركان .. مستوحاه من حضارة الرومان ، والتابلوهات العتيقة والأنتيكات المنثورة فى أرجاء وجنبات المقهى ..
إبتسم إبتساما عابسا .. ممزوجا بجلد أجاج جعله لا يميز جميلا فى تلك الساحة ، لم تستطع اللوحات والمنقوشات أن تزيل القبح الذى غمر وجدانه .. وبغضه لتلك البلدة ..
ومازال الحديث الداخلى تدور رحاه لتعصره عصراً .. شرد ذهنه فإحتدم الصراع الذاتى فى أعمق نقطة برأسه ، حوار لا يهدأ ثائره

- **" لا مجال للعودة .. لا مجال للفرصة الثانية ، ضاق الأفق فى عينى رغم إتساعه .. وأصبح ما بعده سرابيا ، لم أعد أحتمل المجازفة والإبحار .. لقد قلت حيلتى ، وأهدر وقتى وضاعت جهودى هباء ، بات كل شيئ مرهقا .. أصبح مزعجا وموجعا ..**

لابد أن أوقف هذه المهذلة .. لابد أن أصدر قرارى النهائى الأن .. كفى ما تم ..

أحتاج لراحة لأرتب أوراقى وأستعيد قدرتى على التدبير الأن سأغلق الأبواب كفاها ما سعت .. وأُطبق جفناى كفى عيناى ما رأت ، وياحبذا الصمت بعد أن فقدت الأشياء معانيها "

ضائقا ، أشعل سيجارة وند عن صدره رفث الغربة ..

وصرف وجهه يتابع الحراك الدائر بالخارج لعله يبصر شيئا مغايرا يثلج صدره .. ويجبر خاطره ، كان الرصيف مغمورا بمياه المطر .. أقدام المارة تدفع المياه أمامها وتنثرها نثرا ..

رمق السماء المحتقنة بالمزن الرمادية القاتمة ، ثم شرد بناظريه فى الناصية البعيدة الضاربة فى العمق ، تاهت عيناه مخدورة .. وكأن

مخدرا يسرى رويدا رويدا عبر العروق والأوردة .. أحس ببلادة الإنفكاك من الوعى .. والإنعتاق من الإدراك ، لقد فرغ عقله من أدق الأفكار بأمر منه .. لعله يرتاح ..
إلا أنه لمح لافتة المطعم بعيدا .. وثمة تمثالين أثريان مقلدان عند باب الدخول ، فإشتعلت النيران وتأججت بفؤاده مرة أخرى ، طرق بعنف على المنضدة محتجا .. وما لبث سرح تارة أخرى .. تخطفته أتراح الماضى ..
كم كان يراوده الحلم بالقدوم إلى إيطاليا والعمل بها .. وجنى المال الوفير ، تذكركم ضحى وأنكر ذاته وقدم قائمة تنازلات مديدة طوال السنين الماضية .. من العمل الشاق المرهق .. ولم يجنى سوى حقيبة ملابس قديمة إبتاعها من ناصية الحى القديم وقائمة أخرى مكتظة بديون تداينها من زملاءه فى العمل .. كلما أغلقت الدنيا أبوابها فى وجهه ، وهو من هو .. ضحى كثيرا لأجلهم دون أن يسقطوا عنه مليما واحدا .. وبالنهاية لم يُذكر له فضل ..
عشرون عاما مضت وكأنه لم يبرح مصر .. مازال فى نفس الحال البائسة ..

قطع شروده .. زمرة من المواطنين المحليين .. يهرعون أشتاتا متشعبين صوب كل إتجاه ، رمقهم وقد تفرقوا عبابيد .. من أحد الشوارع الرئيسية إلى الجانب ..

وعلى حين غرة ..

إنفجر ثجيج من المحتشدين الراكضين كالجيش العرمرم .. من كل حدب ينسلون ، إجتاحت الأرهاط المتناثرة الأخضر واليابس .. فلم يخلفوا شيئا وراءهم ساكنا على وضعه ..

إنتفض منتصبا .. إلا أن الجموع المتدافعة بعشوائية أسقطته هاويا على الرصيف المغمور .. فإنكبت عليه المقاعد والمناضد التى نصبت فى الساحة المغطاه خارج المقهى ، نفض عنه الأشياء وقام وجلا مرتاعا ينظر ..

كانت إحدى المظاهرات التى إكتسحت الشوارع والميادين فى الأونة الأخيرة .. مطالبين برفع الأسر عن بعض الحقوقيين ..

إلتصق بالحائط وضرب بناظريه بعيدا ، كان رجال الشرطة يلحقون بالمتظاهرين بالعصى والدروع ، وقف مبهوتا بهول المشهد .. وبالضجة والغوغاء والغارة الشعواء التى إغتمرت المكان ، يتابع ما يحدث ..

نشبت عيناه برجال الشرطة وهم يضربون المتظاهرين بعنف يحجمون أعمال الشغب ، ظل مبهوتا شاردا فيما يحدث إلى أن باغته أحدهم على حين غرة .. قابضا على ذراعه اليمنى ، إلتفت كان أحد رجال الشرطة الذين يعلمون بأمر إقامته المخالفة .. ما إنفك يلاحقه أينما ذهب أو حل ، فوجئ فرات بمشهده مصدوما .. إلا أنه إنخفض خلسة وإنفلت من قبضته وهرع مختلطا بجموع المتظاهرين الهاربين ..

إلا أن الشرطى ظل يلاحقه .. حثيثا ..

عبر فرات الناصية المقابلة للحى القديم .. فى عكس إتجاه المتظاهرين ، ثم دلف إلى حارة صغيرة " مراوغا " .. وظل يتسلل من حارة إلى حارة .. دون جدوى ، مازال الشرطى يتبع أثره .. وكأنه قد وطن العزم أن يمسك به تلك المرة ، حاول الإنفلات من ناظريه قدر إستطاعته ، ظل يعدو .. ويدور .. ويراوغ ..

وفى أثناء دوران فرات من إحدى المنعطفات لمح حاوية قمامة .. فوثب مندسا فيها وجسا خامدا .. وكأنه حجرا من جلمد ، يسترق السمع ، ويتسمع خطوات الشرطى المتخبطة .. وهو

يتحرى عنه فى كل أرجاء الحارة .. إلى أن ولج دءوبا من أحد الدهاليز ..

بعد برهة ..

أطل فرات برأسه وتأكد أن الشرطى قد غادر تماما .. فإنبلج هو الأخر من الحاوية ، سار عدة خطوات يتلصص .. حتى لا يقع أسيرا مرة أخرى ..

وهرع يبحث عن أقرب مكان خارج هذا الحى .. وبعيدا عن مرمى رجال الشرطة والإحتشاد ، كانت حالته يرثى لها .. فقد إتسخ بأوحال الحسافة المختلطة فأصبحت هيئته رثة شديدة القذارة ..

ما إن إبتعد عن المخاضة حتى سار متوانيا ينفض عنه الأوساخ التى إلتصقت به .. قدر إستطاعته ، كان قلبه يختلج بقوة وعنف ، وكلما خطى عدة خطوات .. إستدار ليطمئن بأنه لا أحد يلحق به وما إن جسر الميدان الغاص بالسيارات إلى الطريق المؤدية للميناء القديم .. حتى إطمأن فؤاده شيئا ما ..

كان الميناء القديم هو المكان الوحيد الآمن .. فى تلك البلدة " لاسيما فى هذا اليوم المطير " .. بعيدا عن الحرب الدائرة هناك ،

فقد كان مهجورا بدائيا لا يستخدم فى عمليات الملاحة .. وقلما تجد قدما تتجول فيه ، إلا أن الميناء كان مكتظا بثجيجه .. المدفوق إجتاز مترجلا الممشى المرصوف برفات الأحجار القديمة المتناظمة محاذيا لحافة الرصيف ، والمزن يضرب جنباته بلسعات مؤلمة ، إلى أن وصل إلى أريكة حجرية مستندة إلى حائط مبناً خشبى قديم من دور واحد .. كان يستخدم قديما كحظيرة لتخزين وصناعة المراكب الشراعية ..

جلس هائما ، ينظر إلى لجاج البحر الهائج .. وثمة باخرة عملاقة خربة .. مغمورة رأسيا فى المياه " يبدو أنها قديما جمحت وإنحرفت عن مقصدها .. فإصطدمت بالمرسى فغاصت بهذه الشاكلة فى المياه " .. " يحدث نفسه " ..

إنتابته حالة صمت رتيب وكأن على رأسه الطير .. يستشعر نسائم البحر الفياضة ، تبسط صدره وتحسس جهاز الترانزستور الصغير المدفون بأحد جيوبه العريضة ، أخرجه ومضى يقلب فى أزراره .. يتسمع أصوات غنج وهمهمات ممزوجة بصفير حاد ، تنقل بين عدة إذاعات غربية .. إلى أن رست الإشارة على صوت

أم كلثوم .. ينساب عبر الأثير تشدو بعظمة وجلال بأغنية الأطلال ..

وهنا تذكر مصر ..

تذكر بلدته وآله .. وأمه العجوز الشيباء ..

ترى إلى أين طافت بهم الدنيا ؟ ، لقد تاق شوقا لرؤياهم .. والتحصن بأحضانهم ..

ترى ماذا فعلت عشرون عاما بهم ؟ ، هل مازالوا يتذكرونه ؟ .. أم حسبوه ضمن أمواتهم ؟ ..

وهنا تذكر ما حدث بالمطعم .. فإهتاج فؤاده من جديد ، فمضى يكدر حاله أن إعتاد تلك المعاملة المهينة .. دون أن يبدى ردة فعل ، حَدّث نفسه متواترا ..

- **لن أؤنب نفسى ثانيا ، ماذا حدث لأغضب ؟ .. فأى عمل شاق وله مشاكله ، لابد أن أتحمل .. إنها ليست المرة الأولى ..**

لماذا أتذمر اليوم ؟ لماذا لم أتذمر وأثور مذ أهنت أول مرة ؟ .. قبل عشرين عاما ..

اليوم بدأت أفكر فى حالى ؟ .. بعدما ضاع كل شيئ ..

ولماذا أفكر فى الهروب .. الأن ؟ .. والى أين أذهب ؟ ، هل سأبقى وأستمر فى تجرع الإهانة ؟ .. أم أعود إلى مصر ؟ هناك أيضا سأهان ، فبعد عشرين عاما سأعود صفر اليدين .. من سيتحملنى ويتقبل أعذارى ؟
وهل أصبح لى مكان بين أهلى ؟ .. وقد هجرتهم دون أن أراسلهم حتى ..
ذلى هنا أكرم من تشردى هناك ..

تنهد تنهيدة عميقة ..

وتنبه إلى الترانزستور يشدو بأغان غربية من جديد ..

لقد تاه صوت أم كلثوم عبر الأثير ، كما تاهت مصر فى قلبه ، وذاب هو فى بلاد الغربة .. تتخطفه شجون الإغتراب والفرقة ..

ذهل لبرهة .. يشتم النسيم البارد كأنفاس الأطلال الميتة ، جست صفحة وجهه .. وكأن الهبوب الصقيعة قد أثلجت طلته وجففتها من التعابير والإنطباعات ..

حتى الدمع رقأ وجسا فى محبسه .. متشفيا ، إلا أن رقرقة عابثة تائهة .. مازالت تشع بوهج لألأء .. وكأنها عبرات من زجاج ..

كان شتاء هذه السنة قارصا ، السماء ملبدة بالغيوم .. وشمس الأصيل مختنقة بين الرماديات القاتمة المأدومة بالرباب الأبيض .. يترائى السحاب متدليا .. يدنو من صفحة الثجيج الثائر الضارب بتموج .. وكأن إنصبابه خيوطا منسابة ..

نظر مليا إلى البحر الرجراج ورحابته .. يبحث عن الشاطئ الأخر ، المغمور خلف طبقات الأمواج .. كالسماء الغارقة فى زرقة البحر القاتمة .. فلم يجده !! ..

تاهت عيناه .. جسرت الهبوب المعدنية نافذة من جانب رأسه الأيمن إلى جانبها الأيسر .. فأفرغتها من الأفكار ، يتأمل مخدورا .. تلك الحياة الصدئة العجفاء ..

إلتفت جانبا حيث الركام المغمور بالموج فرمق عجوزا ضامرا .. هناك بالجوار ، قارب عمره الإنقضاء المحتوم ، يجلس على صخرة ناشذة .. هو الأخر شاردا ، يستند إلى أحد المراكب الشراعية القديمة .. متوشحا بغطاء يحمل سمت البلاد العربية ، تجمعت حول الرجل بعض الطيور المائية .. تتلامسه .. وتختلج بأجنحتها فتستفز أطراف ثيابه .. وكأنها تداعبه ..

تصدح بأصوات نعيق يطن مترددا فى أعماق اليم اللجى والميناء ، أما هو .. فقد أطبق عليه صمت غرائبى .. يحملق فى إرتحال الأمواج المتضافرة .. وعجيج دواماتها ، يتسمع زمجرتها المخيفة .. الموحشة .. بدا وكأنه هو الأخر يبحث عن شطه الأخر .. الغائب فى زحمة الحياة .. الغاص فى لجاج اليم .. وبين الأحداث والذكريات ..

مال فرات غافيا على أحد جوانبه محتضنا بأرجائه ، ملتفا فى ثيابه .. يتأوه فى إسترخاء وجيع ..

حمل النسيم البارد النوم إلى جفونه .. وغاص فى سبات عميق نافضا عن جأشه مثاقيل الحياة ، يسبح فى خيالات هلامية .. تتناهبه المشاهد .. والرؤى ، وتذوب قبيل أن تبلغ ذهنه وذاكرته رعدت السماء وجلجلت ، على حين غرة ، ومزق سنا البرق الخاطف أديمها .. فإستفاق من نومته جزعا يكاد الوهج المارق أن يخطف بصره ، تنتابه فورة برد .. يتقلب ما بين دفئ وصقيع .. عصفت الريح .. وهطل المطر ، غدقت السماء وجلبت وبقت .. فغرقت الساحة فى دفق مياه الغيث المنثالة ، ضم دفتى المعطف محتميا من المطر .. ثم هرع يتقارب الخطى مغادرا الميناء بأوحالها ،

كانت المياه تثج بغزارة .. وكأنه مشارف سيل عرم ،كاد فؤاده أن يتوقف من فرط الإختلاج .. وكاد فيض الشهيق أن يفجر رئتيه وما إن خطى عدة خطوات .. حتى تذكر ذاك العجوز ، تلفت ناظرا خلفه .. فوجد العجوز منكمشا على حاله ولم يتحرك قيد أنملة ..

عاد ليقيمه ويساعده للمغادرة ، كان العجوز يرتدى لباسا رقراقا خفيفا ، رمقه فرات متألما .. خلع عنه معطفه ، وما إن وصل إلى حيث يقبع الرجل .. ألقى عليه المعطف لففه وأحكمه ، حاول أن يتلتله .. إلا أنه مال جانبا متثاقلا نظر إليه فرات مشدوها .. الهوة تفغر فاه ، لقد مات العجوز.. فاضت روحه إلى بارئها .. صرعه موت الفجاءة ، ولفظ أخر أنفاسه بين ذراعى الغربة ..

رقرقت عيناه وجادت .. غدقت بدموع حارة متأثرة مثقلة ، وأصابه روعا مباغتا ..

رعدت السماء مدوية .. صارخة ، رمق خطا بارقا يسقط هناك على الأطلال .. رفات الأكواخ والصخور المهشمة ، أصابت نفسه قشعريرة ..

نظر محدقا شاردا إلى العجوزالبائد .. فكأنما يتراءي له مقعده من المستقبل ، تلك هى منية الإغتراب .. ميتته على شط .. بحثا عن شط أخر ..

" تمت "

ناس شايفاك

ضغط المدير زر بجواره على المكتب .. فى ضجر وحنق شديد ..

- **بلغ الإدارة فيه إجتماع طارئ حالا ..**
- **أمرك يا فندم ..**

كانت حاله يرثى لها .. يترصد كل ساقطة ولاقطة ..

قام من مكتبه .. تعتريه عصبية غير طبيعية ، كانت رأسه مكتظة بالأفكار الجامحة دون لجام .. يدور فى الغرفة جيئة وذهابا ترفث الهواجس بمخياله .. لا يملك السيطرة على إنفعالاته وردود أفعاله ..

بدا متعثرا ومتخبطا حتى أنه إصطدم بمنضدة صغيرة فى جانب الغرفة عدة مرات .. وكانت النتيجة وقوع فازة زهور نفيسة " ممضاه – أهداه إياها أحد العملاء " ، فتهشمت وتحولت إلى رفات وفتات صغير ، فإستشاط غضبا وهاج جأشه ..

صرخ مستدعيا مدير مكتبه والذى بدوره ولج مرتبكا ومتلعثما ماثلا أمامه ، لم تنبو له كلمة فقد تحشرج الكلام فى حلقه ، ولكن عندما أبصر الفتات المنثور .. أمر الفراش بتنظيف المكان فى

هدوء ودون إستطراد فى الحديث ، ثم أب بالخروج متعاجلا ..
وكأنه فر من عقال حتى لا يناله قسطا من عصبية المدير..
دخل الموظفين بأقسام الإدارات واحدا تلو الأخر الى مكتب المدير " وكانوا خمسة أشخاص " ، صرخ فيهم المدير هائجا ..

- **فين يا أساتذة الإقتراحات اللى طلبتها منكم .. المصنع هيفقد مصداقيته ، العملا سحبوا إتفاقيتهم ..**

خيم الصمت الخائب على وجوههم .. ولم يجترأ احدهم أن يختلق أو ينتحل الأعذارا الواهية ، أو التذرع بالحجج ..
بينما رد فرات ..

- **حضرتك .. أنا سلمتها**

صرخ فيه المدير ساخطا رافثا .. وقد إحتقن وجهه من الغيظ ..

- **إنت تخرص خالص .. الدراسة بتاعتك دى .. تديها لحد بيبيع لب وسودانى ..**

طأطأ فرات رأسه متخاذلا .. وتراجع فى خزى شديد يظهر ندامته ،لم ينبس بكلمة .. إبتلع خيبته ولزم مكانه ..
ولفرات مع المدير إسترسالا وحكايا وأوابد عجيبة ، فهو أحد المستشارين الذين أبدى لهم المدير الأزمة التى يمر بها المصنع ..

وطلب منهم عمل دراسة سريعة للأزمة وكيفية حلها ، كان أدناهم درجة وأعجبهم أرائا وأكثرهم مجهودا ومقترحات ، كان غريب الأطوار ..

ما إن يقدم إحدى وصفاته النابغة .. حتى يقابل بوابل من سباب المدير وإزدراءه .. وسخرية زملاءه ، حتى أن إحدى الدراسات التى قدمها رُميت من نافذة مكتب المدير ..

المشكلة هنا هو أن جل دراساته كانت خاوية من أى حلول ، كانت أشبه بتعاليم وتوصيات يوتوبية أفلاطونية .. غير قابلة للتطبيق ، ولا تخضع لقوانين الواقع ومقتضياته .. وبعيدة كل البعد عن الأزمة الحقيقية ، وفى كل مرة يقدم ذات الشيئ ولكن على نحو أخر .. دون مضمون ودون جديد ..

وكعادة فرات .. لا يتعلم مما سلف ..

وكعادته أيضا قبل دخوله أى إجتماع بدقائق يتباهى بالمجهود الذى بذله .. ويتبطرق ويتبغدد زهوا بأفكاره المبتكرة هذه المرة والتى إستخدم فيها إسلوبا مغايرا عما سبق .. رغم عدم تفهمه أو إقتناعه أو قناعته هو ذاته بنتائج وثمرات قرائحه ..

كان زملاؤه يعرفونه جيدا .. يحفظون طريقته عن ظهر قلب ، يعرفون أنه لا جديد فى الموضوع .. وهو الوحيد الذى لا يستبصر هذا ولا يعيه ..

ويبدو أنه لا جديد أيضا يقدمه اليوم .. فقد قدم أخر ما فى جعبته وعصارة أفكاره .. وهذه هى حدود طاقته ..

كان الجميع يتعجب مندهشا ..

- **مادام فرات لا يتقن هذه الوظيفة .. لماذا يمتهنها ؟ .. لماذا لا يقدم إستقالته ويبحث عن عمل أخر ؟**

ولكن الحقيقة كانت أبعد ما يكون عن ذلك كله ، لقد إمتهن تلك الوظيفة خصيصا من أجل غادة زميلته .. كان شديد الهيام بها ، أو قل يعشقها عشقا أفلاطونيا .. كطبيعة دراساته ، تأسره عيناها الزرقاء وجدائلها الذهبية .. يحب نداوة وجنتيها وبسمتها الآسرة الساحرة ، وطلتها التى تشبه زفة الأعراس ..

تستثير أحاسيسه الكامنة ويطيح لبه .. ويفقد رشده فى حضورها ، بينما هى لا تكترث ولا تأبه بمشاعره ، دوما ما يشعرها بأنوثتها

البراقة وجمالها الأثير ولجة وجودها المميز فى فؤاده .. بينما هى لا تلقى له بالا ، كانت مشاعره مبتورة .. من طرف واحد ..

وبعد كل حادثة إنكسار وكلما أخذ عهدا ألا يتوق لها .. غلبه الشوق ناكثا العهد وعاد غارقا فى بحورها إثر ضحكة أو كلمة ،لم يملك يوما المناعة والحصانة ، بينما هى على العكس تماما .. بالنسبة لها كان حاله مزريا مثارا للضحك والسخرية ..كان أحوج للشفقة أكثر من الإعجاب ، عانى كثيرا صلفها وعجرفتها وأنانيتها .. وغرورها وتعاليها السخيف ..

ولاثيما إجتماع المدير ..

هذا اللقاء الكوميدى الممتع ، ويرجع الفضل له فهو صاحب الأفكار الفاشلة .. اللامعة بغباء وحمق .. الزاهية بفقرها وشحها ، الداعية للإضحاك ..

كان كل مرة يحاول إعتصار قريحته .. ولكن القدر يحول دون أن يحدث ما يرنو إليه ، فلا أحدا يؤيده أو يستحسن فكرته ، فيقع ضحية لشتائم المدير وسخريته .. ويصبح فقرة المنوعات فى كل جلسة ، فيتضاحك زملاءه كما لم يضحكون من قبل .. ومن بينهم غادة ..

تستمتع بالأراجوز الذى تلقى منه ما يبهجها ، وما يزيد من جرعة كركرتها .. عندما يحاول فرات الدفاع عن ذات الأفكار .. وهذا أكثر ما يجرحه .. ويحرجه ، وكأنها لا تراه ولا تشعر بوجوده ، لا يلقى منها غير التجاهل والنفور ..

ورغم ذلك كله .. يصر على البقاء والإستمرار بالشركة .. فقط ليكون بالقرب منها رغم ما يتجرعه من إهانات ، فلربما إستحسن المدير عمله يوما ما .. وأثنى عليه .. فيسترعى هذا ناظريها ، مازال عنده أمل أن تشعر به ..

وتحس النار المتأججة التى يكتوى بها فؤاده مرارا عندما يراها ..

وفى هذا الإجتماع عقد العزم على تقديم شيئ مختلف ، قضى ليلته يعد فى دراسة .. حسب أنها تختلف عن سابقاتها .. ولكن لا جدوى ..

وليته يسمع أو يبصر .. فكأنما تبت مدركاته السمعية والبصرية ، كم نصحه زملاءه دون مجيب ، فكما سيطر حب غادة على صدره وإحتوى جأشه .. إستبد أيضا بلبه وإحتوى تفكيره فحجمه .. وقتل أى طموح خارج حدودها ، وهى كالصنم لا تشعر ولا

ترى ، لذا كان دائما خارج مرمى ناظريها .. حتى وهو بالقرب منها ..

ألقى المدير بالملفات فى وجهه بعنف شديد وغلظة .. وحدث ما يحدث كل مرة من هرج ومرج ، والمدير فى هوجته لا يرى إلا تقصير فرات ، عميت عيناه عن مسرح المهرجين الذى أحدثه موظفيه .. وكأنه كليل البصر والبصيرة ..

وبينما يقف فرات زاهلا شاخص العينين .. شاردا ومشتت الذهن .. والعبرات على أعتاب عينيه ، سمع غادة وهى تتنمر عليه وتهمز وتلمز بأفكاره الراكدة ..

هوى فرات ثَقِلاً يلملم أوراقه المتناثرة كحياته التى تهشمت بعنف .. وإندثرت على وجوههم المتشفية فأصبحت رفاتا ..

رفع ناظره إليهم أسفا لما يحدث .. وقلبه ينفطر ألما قبضة عتية تعرقل دقاته ، ثم أوطأ رأسه يبحث عن أفكاره الضائعة تحت أقدامهم ..

وما لبث أن قام ملبيا صرخات المدير .. الذى طرده بعدما ألصقه بأدنى الأوصاف وأوصمها ، وخرج تاركا وراؤه مسرحية كوميدية .. هو بطلها ..

وفى الطرقة الطويلة خارج المكتب ..
كانت دقات قلبه تتردد بعنف .. متباطئة ثقيلة .. مع خطوات اقدامه ، وتطن وترقع مدوية فى مسامعه .. ومع خطوه وطنه .. يترائى لمقلتيه مشهد بحياته ..
كانت المشاهد مترنحة ، متباطئة ومتسارعة ، متداخلة ومتكررة .. أحلام الطفولة والصبا .. وبهجة الطراوة والنداوة ، المراهقة وسنى الجامعة .. وحلاوة الحب العذرى .. البريئ ..
وشطحات وتطلعات عقله ، دائما ما كان يتباهى قائلا .. لا حدود لطموحى .. لو رفعت يداى سأطال السماء السابعة .. ولو غرستها ستصل الى سابع أرض ، حدث نفسه ..

- **بترت الأذرع وبتر الحلم الذى داوم يراودنى .. والمقصلة كانت حبى لها .. لعن الله قلبى .. وليذهب حبها للجحيم**

وقف جاحظا عند حافة النافذة .. مستبحرا فى لج الماضى الغابر .. المثقل ، يتطلع إلى بوابة المصنع ..
تذكر تلك الأيام الخوالى ، منذ عدة سنوات مضت ، حينها كان حائرا فى فلك محبوبته .. غادة .. طوافا وراءها أينما حلت تحدوه

رغبة جامحة .. وعشق ملتهب بلظى الهوى ..كانت تثيره حتى النخاع بعودها الممشوق وسمتها البراق ..

كان يقف لساعات طويلة .. يرمق نافذة غرفتها .. يتمنى إشارة واحدة من طرف بنانها أو إطلالة بوجهها ، دائما كان بالجوار القريب .. يباشرها .. يتابعها فى ممشاها .. ويترصدها فى المول والمتنزه ، وتكبد كثيرا من إستياء أهله وسخرية زملاءه حول تلك العلاقة المرضية ،لم ينصاع يوما لنصائحهم .. بل إزداد ظمئا وشوقا إليها ..

وعندما علم من أحد المقربين .. أنها ستتقدم للعمل فى ذاك المصنع .. لحق بها ، توجه رأسا ليتقدم لنفس الوظيفة .. ليكون دوما بالقرب منها ، لعله يجد فرصة ليبوح لها بما يجيش فى خاطره .. إلا أن شيئا لم يتغير ، فبينما تقاربت المسافات .. تباعدت وتجافت القلوب .. وإستهلكه الفراق والهجران ..

قطع سرحته الطويلة المؤلمة .. يدا رست على أحد كتيفيه ، إستدار ليجدها منال .. والتى حدثته بنبرة حانية ..

- **إيه يا فرات هتيأس بسرعة كده .. فين بقا فرات بتاع زمان ، إنت أكبر من غادة وحبها ، ولو راحت فيه ألف غيرها**

- **المشكلة مش إنها مش حاسة بيا .. المشكلة إنى أصلا إكتشفت إنى فعلا فاشل .. فاشل فى كل حاجة حياتى .. الشغل ، حتى فى حبها ..**

أردفت .. رأفة ومواساه لحاله ..

- **عمرك ما كنت كده .. الحكاية بس سوء حظ ..**
- **حظ ؟! .. طول الوقت حظ ؟ .. ده ملوش غير تفسير واحد .. إنى عمرى ما كنت ناجح فى حاجة .. للأسف ..**
- **متقولش كدة .. إنت موهوب .. الحكـ ...**

إنفجر فرات ساخرا ..

- **موهوب ؟!!..**

وإنفجرت منه ضحكة هستيرية وحيدة النبرة لا تخلو من ألم مستتر ، أُغلقت بإبتسامة يأس مبهم واهنة .. ضاربة فى العمق ، ثم أطرق ترحا ..

دنت منه منال وإستطردت بنبرة رخية حانية ..

- **أه موهوب .. بس ملقيتش اللى يقدر موهبتك .. وبالنسبة لغادة لازم تنساها ..**

- **لازم أنساها !! .. أنا أصلا ما لفتش نظرها .. غادة شخصية مميزة ..**

ونظر إلى قدميه .. متقهرا ..

- **طول عمرى كان نفسى أحب واحدة مميزة**

وسكت برهة .. شاخصا فى المجهول

- **ده كان هيساعدنى أنجح .. وأغير حياتى ، بس نسيت إن الطيور على أشكالها تقع ..**

أجابته بردا مقنعا صدم بالحجة كل هواجسه .. وأثلج صدره ، وأراح النبض الثائر بفؤاده .. والأفكار الحائرة بخلده ..

- **ممكن ميكونش فى حياتك شخص مميز .. بس ممكن تكون إنت نفسك الشخص المميز عند ناس كتير .. ناس شايفاك .**

" تمت "

مات وحيدا

إنتفض فرات إثر سماعه ذاك الصوت المزعج ، رغم إعتياده عليه ، جرس التليفون المنزلى .. دوما ما يدوى فيقطع نوبة إندماجه أمام التلفاز ..

رفع المسماع ، حدثته عبر الأثير سيدة بدا من صوتها أنها خجلى ، صوت شجى حنون ..

- **الأستاذ فرات ؟ ..**
- **أجل .. معك ..**
- **لقد شاهدت الحلقة الماضية من برنامج " حكايا " عبر التلفاز ..**
- **وهل لديك شيئا جديدا بخصوص .. قضيتى ؟ ..**
- **أجل ، أعرف أسرة لديها صورة لطفل صغير .. شديد الشبه بتلك التى عُرضت بالبرنامج ، أظن أنها أسرتك التى فقدتها منذ نيف وعشرين عاما ..**
- **حقا !! .. وكيف أصل إليها ؟ ..**

وسريعا أعطته السيدة العنوان ، وأطبق مسماع التليفون ..

لم يهدر الوقت ، هرع حثيثا .. أغلق التلفاز وتأهب لتوه يرتدى ملابسه ، ونفر متآزفا تحدوه رغبة الإشتياق وحرقة الفراق ..

أقفل باب الشقة وإطمئن أنه أُوصِد بإحكام .. ففى أخر مرة وفى حدث مثل هذا .. فى خضم عجالته ترك الباب ساهيا دون أن يغلقه جيدا ، فتسربل اللصوص وسرقوا بعض حاجياته .. لذا تنبه هذه المرة ..

ثوان وكان أمام المصعد ، ضغط زر الإستدعاء عدة مرات .. دون إستجابة ، إنتظر قليلا .. دون جدوى ، خالجه ظن أن المصعد قد تعطل ، فراودته نفسه أن يترجل هابطا على الدرج ، تحرك خطوتين ناظرا إلى هوة الدرج .. تشعرك حلقاته الممتدة بشكل حلزونى للأسفل بوحشة وإنقباض ، تَتَابع الواحدة تلو الأخرى كأنك عند حافة الهاوية ، كان الإرتفاع شاهقا للغاية ضاربا فى العمق ، فقد كان صاحبنا يسكن بالدور العاشر ..

ظل حائرا لبرهة ، وجلا أن يضطر للنزول على قدميه ، ولكن بالنهاية رأى المصعد يتبين أمامه .. شيئا فشيئا ، يتحرك للأعلى متباطئا .. يرتج متهدجا ثقيلا ، تُسمع بجلاء قعقعاته وصفير

الإحتكاك ، عمارة تتداعى ومصعد عتيق .. صندوق خشبى قديم أعياه الإستهلاك وإستنفذه الزمن ..

رمقه فلم يجد به أحدا .. دخل مسرعا وأغلق الباب وضغط رز الهبوط .. ووقف ينتظر ..

سرح بناظره فى تجزيع حائط الغرفة الخشبية .. فلمح تلك المرأه المهشمة التى إعتاد رؤيتها تشغل حيزها من الحائط ، أبصر مليا صورته فى شقف المرأه .. كانت مضعضعة ومتداخلة على نحو مربك ..

هى الأخرى متكسرة .. هشمتها سنى العمر المنصرمة ، وحفرت التجاعيد مسيرا لها عبر وجهه فكلفته وصدعته .. كتشققات أرض جدباء مقفرة ، لقد شوهت الخطوب والأحداث طلته .. ويبستها .. مثلما جست العبرات فى أعمق محط بمقلتيه ..

هل ذاك فرات ؟ ، الطفل البرئ الندى .. الذى كان يستقبل سنى عمره الأولى بحماس مطلق .. بلا فتور أو كلل ، لم يكن الوجد قد عرف بعد لقلبه مسلكا .. ولا لجأشه موطنا ،كان غضا رطبا .. لينالم تقسيه أحداث ولا أزمات ..

فى تلك الأيام كان يعيش فى كنف أبيه .. أبا حنونا تجاوز عمره الخمسين عاما .. ولم يتجاوز قلبه الأربعة أعوام .. هم سنى عمر وليده وحبة عينه فلذة كبده وروحه .. فرات ، فلم يكن فارق السن الشاسع حائلا أن يقاسم طفله حياته الصغيرة وتفاصيله الدقيقة ، كان يستقطع من مهجته ليعيش معه فرحته .. وإنطلاقه ، ودوما ما كان يحنو عليه ويداعبه ..

كان له أبا بحق .. بقدر ما تحمله الكلمة من وقار وإحتواء ، بين أحضانه لم يبكى ولم يغضب .. ولم يكسر له خاطر ، كان صدرا رحبا لجده وهزله .. لبكائه وضحكه ، ولغضبه وحماسه .. ذاك كان أبيه الذى إسترد قوته وعافيته من خضار عود طفله الريان .. فوهبه أيامه الباقية ..

يتذكر أمه جيدا .. الصغيرة ذات الثلاثين عاما ، رغم أن أحداثه معها كانت زهيدة نسبيا ، وذاك أنه كان شديد التعلق بوالده .. لا يتركه ولا يبرح مكانه ، كانت أمه رحما لم يفارقه حتى آنها .. يتقوت بحنانه وينهل من فيضه الذى لا ينقطع ..

عاش فى أحضان والديه .. أمه يدا حانية وأبيه سماءا حامية ، إلى أن حدث مالم يتوقعه أحد أو يحسب له حسابا .. إذ دبر له إخوته

الكبار من والده مكيدة لإنتزاعه من طبقة أبيه وحيازته .. وخطفه من معيته وعنايته الزائدة ، أبيهم الذى لطالما إهتم به وأهملهم .. لينال حظه من حنانه كما نالوا قبل إنقضاء العمر القصير المحتوم ..

وهذا كان فرات الطفل الصغير ، الذي رأى فى كل واحد من إخوته أبا ناصحا وراعيا وحافظا .. يكبره بأكثر من عشرين عاما ، لكنهم كانوا عكس ما ظن تماما .. كشروا عن أنيابهم فإستبانت نواياهم الدفينة ..وحقدهم شديد التأصل والعمق ..

ولكن حدث مالم يتوقعه هم أنفسهم ، فقد مات الشخص الذى كُلِفَ بخطفه بعد أيام من فعلته .. ولم يكن لهم سبيل بالمكان الذى دس فيه أخيهم ،لم يعرف أحدهم أن الخاطف قد جلب الطفل لزوجته .. التى لا سبيل لهم بها أيضا ..

والأعجب من ذلك كله .. ردة فعلهم ، لقد حمدوا للقدر حسن صنيعه .. ونسوا أخيهم كأنه لم يكن ، فضاع الطفل وضاعت معه الحقيقة ..

ولكن ذات القدر كان أرحم من سويداء صدورهم ، لقد تربى فرات فى كنف حاضنة وأم رحيمة ،لم ترتضى أن تفعل به ما دبره

زوجها البائد حينما جلبه لها .. راعت الله فيه صانته وحفظته ، إحتضنته كإبنا من أبنائها

ولكن لم يدم حنانها كثيرا فقد توفتها المنية وهو إبن السابعة عشر عاما ، بعد أن وهبت عمرها شاقية عليه وعلى إثنان من أبنائها .. الذين ما لبثوا أن تزوجوا وتركوا له شقة صغيرة .. عاش بها عازبا وحيدا عازفا عن الزواج ، وكأنه عقد العزم أن يكمل حياته .. راهباً ..

ولكنه ورغم وشج الأحداث وتداخلها وتسارعها ..

إلى اليوم يتذكر جيدا كيف إختطفه إخوته الأشقياء ..

علاوة على ما أخبرته به أمه الثانية .. مما بطن عليه من تفاصيل ما حدث ، يتذكر أنه كان وإخوته بأحد أسواق المدينة بـ " وسط البلد " .. بصحبة أبيهم المريض كبير السن .. والذى أطعموه ضروبا من الأطعمة تسببت فى وقوعه أسيرا لإغماءة سكر شديدة وريثما أفاق من سكرته ، إدعوا أن أخاهم تاه فى زحمة السوق .. إلتهمته الجموع وهضمه لغطهم ، وإنتهى الأمر ، وورات فعلتهم تلك الطفل فى غياهب المجهول .. وَوُئِدت فرحة أبيهم به .. ومُنيته فى أيامه الزهيدة الباقية

ولكن ما حدث بعد ذلك .. فقد خَفِى عليه ، لكنه يتوقع كثيرا .. لابد وأن أباه قد غضب غضبا شديدا .. ولربما تبرأ منهم ، وقد يكون قد وقع صريعا .. متقهرا بحسرته وترحه ..

قطع سرحة فرات الطويلة .. إرتجاج المصعد وتوقفه فجأة عند أحد الأدوار ، إِسْتَفَاق .. وجد أنه مازال فى منتصف المشوار ..

ضغط زر الهبوط عدة مرات .. دون إستجابة ، حاول مرارا وتكرارا أن يعيده للعمل ويبث الحياة فيه مرة أخرى .. دون جديد .. فقد تعطل ، فقرر إكمال مسيرته هابطا على الدرج ..

فتح باب المصعد .. ونزل درجة تلو الأخرى ، ثوان قليلة ، وكان عند سفح العمارة على مقربة من الرصيف يلوح لإحدى السيارات ، وقفت السيارة ولكن قائدها إعتذر فلديه وجهة أخرى ..

إنتظر قدوم سيارة أخرى ، كان قلقا .. ترجل عدة خطوات على قدميه .. حتى إعترضه شخص ما أثناء سيره ..

- **لو سمحت ..**

رد فرات ضائقا ..

- **أعتذر فإنى فى عجالة من أمرى ..**

لم يدع الرجل لفرات مسلكا يسير فيه ، فأينما سار إعترضه ملحا ، فلم يجد فرات بدا .. فوقف يستطلع الأمر ..

- **ماذا تريد .. أما ترانى متعجلا ..**
- **هذه حملة تابعة لمستشفى الأورام ..**

وأومأ الرجل إلى سيارة إسعاف كبيرة مجهزة ، ثم إستطرد

- **نريدك فقط أن تتبرع بالدم ، هذه خدمة إنسانية وواجب وطنى ..**

نظر فرات صوب السيارة .. تردد وتعتع قليلا ، ولكنه حدث نفسه .. " فلأتبرع لعل الله يصلنى ببغيتى وييسر لى مسيرى "

دخل السيارة ..

ثمة إثنان من الأطباء أو ما شابه .. أجلسوه على مقعد شديد الشبه بـ " الشزلونج " ، كان أحدهم يجهز أدواته لسحب الدم من أحد الأوردة عبر خرطوم صغير ، بينما مضى الأخر يسأل فرات عدة أسئلة عن تاريخه المرضى .. وما إذا كان مصابا بأمراض مزمنة من عدمه ، كان فرات يجيب دون إكتراث ودون تركيز ..

مجرد إجراء روتينى لا فائدة ترتجى منه ..

ولكن تطورت الأحداث على نحو لم يتوقعه فرات ، فبينما كان الدم يتدفق برفق عبر الخرطوم الشفاف ..

شعر بدوار شديد وغثيان .. ورغبة فى التقيؤ ..

لحظه أحد الأطباء فقام من فوره وسأل فرات ما إذا كان يشعر بشيئا ما ، لم يلبث أن يجيب حتى أصيب بإغماءة .. فتاه وغفيت عيناه ..

أفلت أحد الأطباء خرطوم السحب ومضى الأخر يجرى بعض الفحوصات السريعة .. كقياس الضغط وتحليل لعينة من الدم ، ولكن ما لبث أن ساءت الحالة جدا ..

فلم يجد الأطباء بدا إلا أن ينقلوه فورا إلى المستشفى ..

....

أفاق فرات .. ليجد نفسه مسجى على سرير ، نظر مليا .. ليجد نفسه فى عنبر للمرضى ، دارت عيناه مستطلعة حائرة فى الجدران العتيقة الملطخة .. إشتم بعمق رائحة المضادات الحيوية وأحس ببرودة شيئا ما يتلمسه ..

تلفت ، ثمة خرطومين يتصلان بذراعيه .. بدا أنهما أنواعا من المحاليل أو ما شابه ، حار من أمره لبرهة .. وأصابته توهة وذهول ..

- **ماذا أتى به إلى هنا ؟ !..**

إلى أن دخلت إحدى الممرضات ، فسألها مباشرة ..

- **معذرة .. ماذا حدث لى ؟ ..**
- **لقد أحضرتك سيارة الإسعاف صباحا .. إثر إصابتك بوعكة صحية ..**
- **وعكة ؟! ، ومتى سأخرج ؟ ..**
- **أنت باق هنا ريثما تتحسن حالتك ..**
- **ولكن ......**

لم يتم كلمته حتى خلت سبيله وخرجت ، إحتقن وجهه بالغيظ .. وحاول مرارا التحرر من مرقده ولكن مازالت رأسه مخمورة .. تسيطر عليه دوخة شديدة ، كما لا سبيل له بإفلات تلك الخراطيم من ذراعيه ، فأذعن منتظرا وقلقا .. لا يعرف ماذا أصابه بالضبط ، حتى تذكر ذاك الرجل الذى دعاه ليتبرع بالدم .. سبه ولعنه فى نفسه .. فهو السبب فى ورطته هذه ..

بقى على حالته يتطلع إلى المرضى حوله ، نظر الى النافذة .. كان الليل قد عسعس .. مما يعنى أنه باق هنا منذ أكثر من خمس ساعات ..

- **ما هذا القدر ؟ ..**

إستشاط غضبا ، فقرر القيام من سريره وليحدث ما يحدث ، ما إن هم بالقيام .. حتى لمح أحد الأطباء يلج من باب العنبر ، فسأله مباشرة ..

- **أستمحيك عذرا ، ماذا حدث لى بالضبط ؟ .. مما أعانى ؟**

نظر الطبيب فى دفتر معلق بالسرير ، ثم قال ..

- **لقد إرتفع معدل السكر عندك ..**
- **سكر ؟! ، ولكنى لست أعانى من السكر !..**
- **بلى ، كما أن ضغطك منخفض للغاية .. وأصبت بجلطة ثانوية بقدمك اليسرى ..**

حاول أن يحرك قدمه .. فآلمته بشدة .. وأحس بها ثقلا كاد أن يبك عظامه ويرفتها ، أردف فرات متساءلا ..

- **ومتى سأخرج ؟ ..**
- **مساء غد .. بمشيئة الله ..**

أحس برأسه تتثاقل .. وغمة تحيق به وتسيطر على وشائجه ، ولكن لا مناص من البقاء ..

قضى ليلته وحيدا .. لا يحادث أحد ولا يحادثه أحد ، ولكن لا ضيم .. فطيلة عمره وهو يعيش وحيدا لأ مؤنس ولا جليس ..

عاد ذهنه مرة أخرى يسبح فى العقود المنصرمة .. وما تكبده من صلف وقسوة ومعاناة وشقاء .. وشتاتا وتشريدا منفيا عن ذويه

- **كم تزن هذه الدنيا الزائلة دون عائلة ؟ .. لا شيئ ، فالأهل هم الجذور وأنا الفرع ، ودونها آل .. فلا فرع ولا حياه ..**

حدث نفسه متحسرا ..

- **" أنا من عشت بلا جذور .. بلا أصول .. كنبتة نبتت على أديم الأرض .. تذروها الرياح الهوجاء .. وتمزق أواصلها " ..**

ظل على تلك الحال ..

كل المرضى غارقين يغطون فى نوم عميق .. بينما يحادث هو جدران العنبر ، إلى أن ولج أحد الممرضين إلى العنبر خلال نوبة دوامه الليلى ..

رمقه الممرض ، لحظ قلقه وحنقه .. فدنا منه وسأله ..

- **ما هى حالك الأن ؟ ..**
- **أشعر بالضيق والإختناق ..**
- **هون عليك .. ما هى إلا ليلة ..**
  ألا تحتملها ؟ ..
- **لا .. ليس هذا خطبى ..**

لم يجد فرات فائدة من الحكى ، فقال بخيبة أمل ..

- **لا بأس .. إنها مجرد ليلة .. وستمر ..**

أخذ الممرض مقعدا .. ودنا من سريره ، متداركا ..

- **أستشعر أن خطبك أكبر من ذلك ، فلتحكى .. فأنا لست مشغولا ، كما أن الليل هنا لا يمر بالصمت .. يكن ثقيلا ، الوقت هنا مملا للغاية**

تهدج فرات متمتما ومتعتعا .. وتواتر مترددا ، إلى أن إنتزع الكلمات من فاه إنتزاعا ، وما إن إنطلق لسانه .. حتى تجاذبا أطراف الحديث حول كل شيئ ..

وقد كان الممرض ثرثارا لا يمل الكلام والبغبغة ، كلما تناسى فرات همه .. إستجداه أن ليسترسل ، أفضى إليه بحديث طويل وباح بكثير مما يجول داخله .. إلى أن أفصح له عن حكايته ..

إندهش الممرض بشدة ، فلم يعهد شيئا مثل هذا .. هانت عليه خطوبه وأزماته .. وأصبحت يسير من عسير لما أبصر من أُبتلى بأخوة كهؤلاء ، ظل ينظر لفرات بشفقة ومشاطرة .. إلى أن قال فرات .. مقاطعا ..

- **ما دام هذا شعورك ، فلماذا تتخيل أن يكون شعورى أنا ؟ .. إن الوحدة والحزن يقتلانى يوما بعد يوم .. بت ميتا بين أحياء ..**
- **الله معك ..**
- **إن أكثر ما يؤلمنى .. أن أعيش وحيدا .. وأكبر وأشيخ وحيدا ..**

رد عليه الممرض مواسيا ..

- **سيجمعك الله بهم .. بمشيئته ، ولكن ماذا ستفعل مع إخوتك إن رأيتهم ؟ ..**

- **لقد سامحتهم .. ومحوت من ذاكرتى ما فعلوه بى ، والأن كل ما يشغل لبى هو اللهفة لرؤياهم .. لا أريد أكثر من أعيش بينهم ، كما تقت شوقا لرؤية أبى وأمى .. لابد وأن أبى قد صار شيخا هرما الأن ، كما أعلم أن لى أختا تصغرنى .. كانت تحملها أمى فى رحمها إبان إختطافى .. لم أرها أبدا .. لابد وأنه كبرت وصارت عروسا ، لكم إشتقت إليهم قاطبة ..**
- **ولكن قل لى ألا تشعر أنهم أهملوك طيلة السنين الماضية ؟ .. فكيف تتوق إليهم ، وهل تظن أنهم يبادلونك ذات المشاعر ..**
- **أنا ألتمس لهم كل ما أتيح من أعذار .. فلم يكن لهم سبيل بمعرفة مكانى .. حيث أعيش ، كما أنى لا أكترث لكل ذلك ، فمهما كان شعورهم نحوى .. فإنى قد سامحتهم وبرأت جانبهم .. كما أخبرتك ..**

نظر الممرض متعجبا من فرط سماحته ، فأردف فرات مستطردا

- وكما أنى لا أريد أن أعيش وأكبر وحيدا .. فإن أخشى ما أخشاه أن أموت أيضا وحيدا .. دونما أن يكون آلى وأحبتى حولى .. يودعوننى ..

كلما جال بخاطرى أنى سأنفق يوما ما وحيدا فى جوف شقتى .. ولن يعلم بخبرى أحد .. فقط سيجدوننى رمة عفنة ، يصيبنى فزع وإرتياع شديد .. ما أقساها ميتة أن تموت وحيدا ، دون أن تؤنس لحظاتك الأخيرة .. يدا تربط جأشك وقتما يتجاسر عليك الرحيل .. وتجس الدماء فى عروقك ..

عينا تُطمئن فؤادك .. وقد طويت مسيرة حياتك .. تملؤه ثباتا وتأهبا حين الذلل .. والروح تتلمس مهربا ..

وحديثا يستقويك وقتما تخور القوى .. ويذوى الجسد .. ويزول الأمل .. ويخبو نور الحياه ، وبسمة تهون عليك وتمحى إبتسام الموت الباهت ، وهمس حيي .. يُلين صراخ الردى البارد المعدنى .. ويستجدى الإسترسال مع الله ، ورحمة سابغة تربت على كتفيك .. وتأخذ بيديك لحياة الدوام ..

حقا ميتة العراء أفضل من ميتة بلا رفاق ..

نظر الممرض دهشا ..

- **ما دام أنك حتما ستموت ، فهل من فارق أن تموت وحيدا .. أو فى رحاب أحدهم ، بالنهاية لا قلب يشعر ولا عقل يفكر .. لن تدرك حتى ذاتك ..**
- **ماذا تقول ؟ ...**

تداركه الممرض قائلا ..

- **ألم تسأل نفسك .. ما بال هؤلاء الذين ضلوا الطريق وسط الفيافى أو فى أعالى الجبال .. فلقوا حتفهم ، أو هؤلاء الذين يموتون بين الثلوج والبرد والصقيع ، أو غرقى فى البحار.. دون أن يودعهم أحد ..**

أو هؤلاء الذين ينفقون فى بلاد أجنبية .. دون أن يعرف أحدا هويتهم .. فيموتون غرباء ..

- **وهل تظن أن هذه ميتة تروق لأحد ؟! ..**
- **ليس هذا مقصدى ، إنما قصدت أن المتوفى بين يداي أهله بالنهاية أصبح جثة هامدة .. لا ترى ولا تسمع ولا تشعر ولا تعقل شيئا .. مثلها مثل الجماد ..**

والذين يموتون غرباء وحيدون يصيبهم نفس المصير .. النهاية واحدة ..

فلا أحياء يشفعون للموتى .. ولا الموتى يشعرون بهم ..

- **أنت مخطئ تماما ، فالموتى يشعرون .. فيستبشرون أو يغتمون .. يضحكون أو يبكون .. يأنسون أو يرتاعون .. مثلنا تماما ..**

نظر إليه الممرض مندهشا ..

- **وكيف يحدث هذا ؟ ..**
- **ترى فى رأيك ما هى جدوى أن يُصلى على الميت وأن يُشيعه أحبته وذويه ؟ ، وأن يظلوا معه عند المقابر يلقنونه ويدعون له ؟ ، وإذا ما تاقوا إليه ذهبوا إلى حيث واروه الثرى مرارا .. بل وحدثوه أحيانا ..**

وإذا ما رأه أحدهم فى منامه .. إنفعل وتأثر وشعر أنها رسالة منه ؟ ..

- **بعض مما تقول راجع لمعتقد دينى أو ما شابه ،**

والبعض الأخر مجرد ترهات وتقاليد تراثية وهمية .. من نسيج الخيال ..

- بالطبع لا ، فالموتى يسمعون دعاءنا لهم .. أليس السمع بعقل وشعور ؟ ..

بل ويشفع الدعاء لهم .. أليست الشفاعة تجعلهم يتمنون أن يتذكرهم الأحياء فى دعائهم ؟ .. أليس التمنى بشعور ؟ ..

وقبل ذلك يُفزع المُقبل على الموت وهو بين سكراته وأيدى ملك الموت .. إذا ما إنتحب ذويه أو عولوا أو بكوا ..

أو قاموا بأفعال مثل شق الجيوب أو قض الشعر أو أهالوا الثرى على رؤوسهم ؟ .. أليس الفزع بشعور ؟ ..

ويحدث ذات الفزع بعد الموت مباشرة .. حين يتوقف النبض ويستكين الجسد ..

كل الحكاية أن الجسد قد مات والروح صعدت لبارئها ، أما النفس فمازالت تشعر وتحس وتعقل ، وبالنهاية هى التى تُعذب وتشقى .. أو تحظى وتفوز بالجنة ..

- أنت محق ، ولكن ما أخطأته أن الموت بين الأحبة نعيم .. وفى العراء شقاء ، إن البارئ لا يظلم أحدا ، فلعل موت

الغريب بلا حبيب أو صديق .. أرحم من ميتة بين أحبة ينتحبون .. فيعذبون ميتهم بأفعالهم الرزيلة ، أو لا يزورونه ولا يتذكرونه بدعاء أو حديث ..

- **حقا ، وهبنى الله وإياك حسن الصحبة فى المحيا والممات ، ولكن ظنى بإخوتى غير ذلك .. لن يهملونى عاجزا أوعجوزا أو ميتا ..**
- **وظنى بربى أنه لن يظلمنى حسن العشير والأنيس حيا وميتا .. وأنه سبحانه سيعوضنى ما عانيت بحياتى ..**
- **وفقك الله ..**

وسكت الممرض عن الكلام المباح ، إذ نظر فى ساعته وقام من فوره ، قائلا ..

- **توجب على الإنصراف الأن .. فلابد أن أمر على المرضى ، أعتذر فقد أجهدتك بحديثى ..**

إنصرف الممرض ، ومازال حديثه يطن فى أذنى فرات ، أفمن المعقول أن يبحث عن إخوته .. ليُشقوه ؟ ، يبحث عن عذابه وألمه كانت فكرة مقيته .. وبدت له مستحيلة ..

لم يُرد الإنخراط فيها حتى لا تستحوذ على عقله .. فيتراجع عن دأبه وبحثه ، وهو من هو ، شديد الصبابة للقاء أهله .. لا يريد أن يموت وحيدا ، وحتما أنهم يبحثون عنه ولم يهملوه .. لم ينسه أحد ..

فقط هى الأيام والأحداث التى حالت بينهم ، وحتما لابد للغريب أن يعود لموطنه ، وللحبيب أن يلقى حبيبه ، وللشريد أن يأوى ..

....

فى مساء اليوم التالى ،

برح فرات المستشفى .. بعد أن إسترد عافيته ووعيه ، كان اليوم قد ولى وإنتهى .. فلا مجال لأية تدابير ، كما أنه مازال متأثرا بأجواء المرضى .. مازال يشعر بالإرهاق والإعياء ..

لذا .. قرر العودة إلى شقته والذهاب غدا وإكمال مسيرته ..

وأمام المستشفى ..

وقف ينتظر قدوم سيارة أجرة ، ولكنه كان مجهدا لدرجة أنه لم يحتمل الإنتظار ، دفعته حاجته للإستحمام ، وللهروب من تلك البقعة الخاوية الموحشة .. حثيثا للسير لمسافة قريبة حتى أقرب

محطة للأتوبيس ، رغم ما سيعانيه من عناء المسير .. إلا أنه أيسر من عناء الإنتظار وحيدا ..

ظل ماشيا .. سارحا ..

ينظر إلى الأرض تارة .. وإلى السياج بجواره تارة " كاد أن يلتصق به .. دون إرادة " ..

دقائق قليلة ، وكان أمام المحطة .. ولكن كان عليه عبور الطريق إلى الجهة الأخرى المقابلة ..

وقف عند حافة الرصيف بجسده الضامر كشبح بلا روح ، عيناه زاهلتان .. شاحبتان ، ورقرقة تغطى صفحة مقلتيه .. إكتنفهما زيغ شديد ، إختلطت أمامه كل المشاهد وتواشجت .. فشوهت التفاصيل وضاعت ملامحها ، كأنما السيارات تمتطى واجهات العمائر ، وإتشحت الأنوار بالأشجار والطريق .. فتشابكت وتميعت وماجت صفحة الرؤية ..

سار عدة خطوات .. متواترا ، فى تخبط وتهدج شديد ..

متباطئا يثقله نير الإعياء والخدر ، لا يدرك أين المسير ..

ولا موضع قدماه ..

وعلى حين غرة ..

صدمته سيارة أجرة مرقت بسرعة جنونية ، أطاحت به بعيدا لعدة أمتار ، وكأنما كان طائرا فهوى .. سقط طريحا مرتطما بعنف بأرض الطريق الأسفلتية الصلدة ..

بغت الدماء من رأسه كالثجيج المحموم .. وإفترشت ساحته ..

ما هى إلا لحظات ..

إتضحت الرؤية .. وإنمحى السديم من ناظريه ..

رأى طفلا صغيرا يسير بين إخوته وأبيه ، وسط عجيج السوق ولغط المارة .. الأصوات مدوية .. صاخبة ، ظلت الأصوات تتعالى .. وتضج .. وترعد .. وتتضاخم

إلى أن خبت فجأة .. فسكت الصوت ..

وسكت كل شيئ ..

مات فرات فى غضون لحظات زهيدة وسط الطريق .. صريعا غريبا .. بلا أب .. بلا أم .. بلا إخوة ..

بلا أحبة .. مات وحيدا ...

" تمت "

يوما أخر

" مستوحاه "

- **" حاضر فهمنا .. "**

قالها فرات متململا .. وهو يلوح الى زملاءه فى المدرسة ، كانوا ينادونه من خلف سياج حديقة المنزل ..

ذلك الطفل القزم ..

نظر الى أمه وهى تهندم ملابسه أمام الردهة المختزلة .. وتتعجله حتى لا يتأخر عن المدرسة .. هبط فرات قصير القامة على الدرج الطويل المطل على الحديقة وكأنه جبل شديد الإنحدار .. كانت الدرجات تتلاحم معا فى غلظة مزعجة ولكنه قد تعود عليها تداعبه فى النزول ويداعبها ..

وما إن أنهى الدرج إلى السفح .. حتى نادته أمه كعادتها كل صباح ..

- **فرات ..**

دفعته قبلة فى الهواء .. وثب من مكانه عدة سنتيمترات وإلتقف القبلة منتشيا ..

وهرع إلى زملاءه .. وطفق الأطفال فى الطريق المعبدة المؤدية إلى المدرسة .. كان مدقا طويلا قد شق له مسيرا بين الزراعات والأشجار على طول الجانبين ..

وبالتوقف لبرهة عند فرات هذا الطفل العجوز ، ذو الثمانيه أعوام ،كان عاشقا قبيل سن العشق بزمن ..

فرات .. العاشق الصغير المتيم ، أثير الألق والإفتتان .. ذو النظرات الناعسة ، صاحب الحكى المبهر .. والجأش الشجى .. والإحساس المرهف ، لديه دائما ما يرويه رغم صغر سنه وحداثة عمره ، لحظاته الصغيرة أيقونات ملهمة ..

يهيم فى تيه العشق بمجرد أن تبتسم له رودى ..

معشوقته الصغيرة ، غادته الشقراء الحسناء ، ذات الضحكة المميزة .. والثغر المضيئ .. والطلة البريئة ، ومما يزيد محياها جمالا .. تلك " الكريزمة " البراقة الطاغية ، والتصرفات الأكثر دلالا .. تفوقها سنا ..

كأن ترسل شعرها الذهبى فيترامى متناعما متناغما كأمواج اليم اللجى على صدرها .. عندما يطرى عليها فرات أو يطرب أذانها بثناء جميل ، أو أن يجذل صنيع ما لأجلها ..

إلا أنه لم يكن حظيا ..
فثمة طرف ثالث كثيرا ما أفسد عليه جل لحظاته الحلوة معها .. غريمه فى حب رودى ،كان فرات يبغضه بشدة .. وينازعه حبها بامكاناته الهزيلة ، فقد كان ذلك الغريم ينتمى لأسرة موسرة شديدة الثراء ، بينما كان فرات من أسرة فقيرة .. بالكاد تجد الكفاف ، وإستغل الأخر تلك الميزة فى محاولات جمة لإبهار رودى وإنتهاب إلتفاتها .. وإبعادها عنه ، ودائما ما كان يسفر ستره ويفضح ضعفه بسماجة على نحو فج وفظ .. ليصبح مثارا للسخرية ..
وفى كل المرات يتغلغل الإنكسار إلى جأشه ، ويذعن ويثنى عزمه عن المضى ، لا يستطيع الإنتصار لذاته .. رغم براءة بغيته وقوة أسلوبه ، ولباقتة التى تفوق سنه ..
تزينها حكمة عاشق صغير .. وملهم قدير ، وروح مرهفة متوقدة ، والأكثر من هذا .. يملك فؤدا متبصرا .. صادقا صدوقا ، بسيطا بلا رتوش ..
قد تكون حياة ولحظات هذا الطفل الصغير بخبرته التى لم تختمر .. أسخى من عهود ضاربة فى العمق قضاها كهل عجوز هرم

طاعن فى السن .. ولج الى هذه الدنيا من باب ، وينتظر الخروج من أخر دون أن يدرى به أحد أو يأبه .

....

ذات يوم ..

ظل فرات يلح على أمه ويسوق لها التشفعات .. أن تبتاع له حاسوبا صغيرا ، وكان حينئذ لا يمتلك أحدا من رفقائه هذا الجهاز ، لم يكن يريده رغبة فيه فهو لا يعرف حتى كيف يستخدمه .. بل ليجد ما يسترعى إلتفات ناظرى رودى فتعيره إهتمامها ، وتوافق أن تصحبه معه الى منزله .. أو حتى يحظى بقبلة صغيرة منها ..

دائما ما كان خلده يصورها بلذتها وريقها وعبيرها وما هو أدق من ذلك ، فلطالما وعدته بهذه اللثمة .. ومنته بمتعتها ..

إنفجرت داخله الأحاسيس .. وإجتاح جأشه أعاصير الرغبة الجامحة ، فطفق الحلم يراوده ليلا نهارا ..

ولكن ما تكاد أن تفى بوعودها .. حتى يظهر غريمه ليفسد هذا الحلم ، فتعده أن تقبله فى يوم أخر .. ولكن هذا اليوم .. أبدا لم يفد ..

وكثيرا ما إستغوته الأمانى الكاذبة لو أن هذا الغريم إنتقل الى مدرسة أخرى أو حتى ضنت به الحياة ..

وأخيرا .. وبعد عناء شديد وافقت الأم أن تبتاع له الحاسوب .. رغم ما ستتكبده الأسرة من أموال إلا أن عزيز قلبها ومدللها يستحق بعض التضحية ..

ذهبا الى أحد المتاجر الخاصة وابتاعا جهازا منزليا بسيطا .. يليق بطفل ، وفى المنزل استغرق فرات ساعات وساعات .. يتحرى لحاسوبه عن موضع مناسب بغرفته .. حتى أضنى أمه وأنهكها ،كان كلما وضعه بمكان نظر اليه فى تذمر شديد ..

- **لا .. لن تروق لرودى ..**

ظل ينتقل به فى الغرفة من موضع لأخر ناقلا معه كل أثاثات الغرفة من أماكنها .. وهو يحدث نفسه ويعدها بكلمات وعبارات جذيلة رقيقة سينالها من فم رودى الوردى الجميل ..

فى ذات الوقت .. كانت أمه وإخوته الكبار يراقبونه ويتهامسون ، وتكاد ضحكاتهم أن تفرج إطباق إبتسامهم عنوة .. لتدوى فى الغرفة ولكنهم إلتزموا الجدية .. حرصا على مشاعر عاشقهم الصغير ..

ظل يحدث ذاته ..

- **أخيرا سأقبلها ..**

ستفى بكل وعودها جملة واحدة .. بالتأكيد سيكون يوما ممتعا ورومانسيا ، وسأكون أسعد إنسان على ظهر الأرض

جاب الغرفة كلها وجرب كل شبر فيها ، وأخيرا إجتبى مكان مميز يتناسق مع مفردات الغرفة حتى يحظى بإعجاب متيمته ..

....

ومع تباشير الصباح الباكر ..

إرتدى فرات أفضل ملابسه وهرع الى المدرسة ، والأحلام تطيح برأسه وتحوم بمراسى العاشقين .. مرسى مرسى ..

وإبان الراحة المدرسية طفق يتحرى عن رودى ، كانت تقف فى مكانها المعتاد تحت شجرة عتيقة بحوش المدرسة الصغير ..

ما إن رآها .. حتى برقت أسارير وجهه ، تقارب منها يتبطرق فى زهو وخيلاء متباهيا بملابسه المنمقة ..

طالعته بإبتسامة وهاجة ،كادت أن توقف فؤاده .. وتذيبه ، فتغير حاله وباتت خطواته نحوها وجلة .. حذرة .. ، وقلبه كقطار لا

يعرف محطات .. يكاد أن يثب من صدره .. دقاته لا يحتملها ، وكل خطوة يتحركها اليها تثقله .. وتجهده كثيرا ..

ومع أخر خطوة .. حمد الله أنه أخيرا قد وصل اليها ،لم يستطع أن يعبد حديثه ويمهد لمفاجأته ، قال لها مباشرة ..

- **لقد إبتعت حاسوبا بالأمس ..**

إنبهرت رودى بالخبر .. وإستبشر كثيرا لإنطباعها الأول فتجاسر أكثر وأعلن لها أنه إبتاعه خصيصا من أجلها .. فإستفاض إنبهارها ، فعرض عليها مباشرة استضافته لها ، وقبل أن تنبس بكلمة .. تداركتها ضجة تتقارب من بعيد .. سمعت غنج صوت لأغنية معهودة لها بإسمها " رودى " ، كانت الأغنية التى تعشقها .. غناها لها والدها فى عيد ميلادها الأخير ..

إلتفتت فجأة نحو مصدر الصوت ..

وفجأة ودون إبداء رغبة .. همت إلى قبيل باب المدرسة ، بينما لزم فرات مكانه فى إندهاش وحيرة .. يحدث حاله ..

- **ماذا حدث ؟!!..**

كان غريم فرات فى إستقبالها .. وبيده حاسوبا محمولا .. هو نفسه مصدر الأغنية ، وكعادته الفظة .. يمزق أديم صفوه ، ويفسد عليه لقاءه الذى طال إنتظاره ..

نظر إليهم فرات فى إحباط شديد .. والصمت مطبقا يكاد أن يقتله ، والهم يجثم على فؤاده ، فبعد أن سر لعدم حضور غريمه الى المدرسة هذا اليوم .. ووجدها فرصة سانحة ليعرض مفاجأته .. صدم برؤيته عند باب المدرسة

و يبدو أن القدر يضمر له الكثير ..

تحرك نحوهم وإستقر على مسافة قريبة ، رنت إلى مسامعه كلماته وهو يستضيفها الى منزله ، نظر إليها فرات مشدوها .. منتظرا ردها ، وكان واضحا أنها كانت فى شتات من أمرها ولكنها أجابته ..

- **ولكن ، لا يهم .. أوافق ..**

وتحركت الى فرات .. وقطت جبينها معتذرة ..

- **أسفة يافرات .. سأتى معك فى يوم أخر ..**

وخلت سبيله وتحركت فى اتجاه غريمه ..

وقف فرات موجوعا .. يأسى لحاله ..

- **لكم طال المدى بينى وبين هذا اليوم الأخر ..**

كل وعود رودى تحولت إلى يوم أخر ، تكرر هذا الوعد .. وإنتهى الى اليوم الأخر ..

لملم حاله وذهب خاضعا .. منكسا رأسه يشتكى لحاله سوء طالعه .. وخطوه العاثر .

وعند عودته للمنزل .. سألته أمه ..

لماذا تبكى ؟! .. ألم تعجب رودى بالمفاجأة ؟

رد متهدجا بخيبة أمل ..

- **ماذا فعل أبى لينال إعجابك ؟!..**

ضحكت الأم ، لم تجد إجابة ترضيه .. فأطرقت ..

- **لم يفعل شيئ ؟ ..**

سألها ..

- **ألم يجلب من أجلك حاسوبا ؟**
- **لم يكن على عهدنا حاسوبا أو غيره !! ..**

طفق فرات ينظر الى أمه فى إندهاش ، ثم تحرك إلى غرفته فى ترو وسكون .. والأفكار طوافة تحوم فى رأسه ، وجال فى نفسه ..

- **لم يكن هناك حاسوبا ولا تلفاز ولا غيره ، كان زمن يبرح للحب مكان .. يترك له فرصة ليعلن عن ذاته ..**
ليتنى إبن هذا الزمن وهذه الأيام ..
وليس إبن اليوم الأخر ..

لم يكن فرات ليخضع بسهوله ، فبعد يومين .. أمسك فرات بعملة فضية .. ومضى يقلبها مستبشرا منتشيا ، فأخيرا وجد شيئا أخر سيرعى إلتفات رودى ..

لقد إكتمل لديه ثمن قطعة البازل التى طلبتها منه سالفا .. كان قد رأها عند بائع الكتب

وفى مسيره من المدرسة الى المنزل .. كان يجرى ويثب وبيده عملته الفضية وعلى ظهره تتأرجح حقيبته يمنة ويسارا ، كلما سار مسافة .. وقف بتؤدة ورفع عملته النفيسة وأقامها أمام قرص الشمس

- **كم هى ثمينة حقا .. وكبيرة أيضا تمكنت من حجب قرص الشمس عن أخره ..**

كان قلبه ينتفض من مستقره من برهة لأخرى ، هذه العملة هى كيوبيد الحب .. بسهامه وعشاقه ..

من آن لأخر يسرح ويتخيل ماذا ستفعل رودى عندما ترى قطعة البازل ، هل ستقبله ؟ ..

لا لا .. ستمتعه بحضن دافئ لكم تمناه .. وحلم به ، إلتهبت وهاجت مشاعره .. عندما تذكر أنه لم يستطع الإمساك بيدها حتى الأن ، أطبق راحته بحرص وحذر على العملة حتى لا تنفلت منها ..

كان كلما رفعها وحدق فيها .. بدت كالمرآة ، فقد كانت عملة جديدة ، أبصر نفسه ويد رودى ممسكة بيده ويجريان فى الزراعات ..

هذه حشائش ، وهناك أعواد القمح الصغيرة ، وعلى البعد .. أشجار الليمون ..

- **لا لن نتغلغل بين تلك الأشجار .. حتى لا تصيب رودى أشواك الليمون الحادة الجاسية ، سنسير هاهنا بجوار جدول المياه الرقراقة المجاور لأعواد القمح ..**

أعرف أن الممشى ضيق ، سأحرص ألا تقع رودى فى المياه .. سآخذ بيدها ونضحك ونتسامر ، ونقضى وقتا ممتعا ..

حدث العملة بحديث مكرور ..

- **أحب لمعانك .. لكم تشبهين جدائل حبيبتى**

زاغ فى بريقها الآخاذ .. وإغتمر فى نشوة ممتعة وحميمة

زاد البريق ..

وشردت عيناه حتى أنه لم ير .. إلا بقع وهاجة ، أذهلته حزم الضوء اللألاءة بشدة ، كان وقعها كالملح ، آلمته عيناه وكأنهما تحترقا .. وبضع الدمع فيهما ..

تدارك نفسه ومضى يفركهما متوجعا ، يفرك ويفرك ..

حتى خمد الألم ولان .. وبردت عيناه ، لكم كان الضوء ناهبا ..

رفع كفيه وأفردهما ،كان اللمعان الشديد هو أحزمة من ضوء الشمس تقابله مباشرة ، ولم يكن إلتماع العملة كما ظن ..

وبغتة ، صرخ جزعا ..

- **العملة ؟! .. أين العملة .. أين عملتى ..**

لقد إنفلتت من بين يديه ، مضى يبحث ويبحث .. مبهوتا بهول الحدث ، لقد تاهت بين الحشائش .. إنفلت قيادهها فإبتلعتها .. دون رحمة .. لا تأبه بمشاعره ولهفته ..

لم يصدق أن عملته ضاعت ، فلربما كانت تائهة هنا أو هناك ..

أطرق يجس يديه بين الأعواد الخضراء .. ويذرى الثرى ، لعله يجد ضالته ، أنهكه البحث .. دون جدوى ، أصابته الخيبة .. وأطبق الهم على صدره ..

لم يستطع أن يتجاسر على نكبته .. فأخفض لها جناحه خاضعا ، رقرقت عيناه وإستعبرت ، متحسرا على أماله التى أجهضتها الحشائش ، طفق يتمتم غائبا ويعض على نواجذه ، لقد أرخى اليأس سدوله على فؤاده مرة أخرى

بدت التغريدات والوشوشة حوله وكأنها أجراس تأبينية .

مضى فى طريقه الى المنزل والنار متأججة فى قلبه ، لا يفكر سوى أن عليه أن ينتظر يوما أخر حتى يحصل على عملة أخرى ، هى مصروفه فى اليوم التالى ..

- **ستنتظر الأحلام يوما أخر .. لكم كرهت هذا اليوم الأخر**

" تمت "

الباب الثانى

القصص الكبيرة

صرصار القهاوى

كانت الفئران ترتع تحت قدميه .. تبحث عن كسرة خبز أو قضمة لحم ، حيث يتناول أغلب زوار المقهى بعضا من " الساندويتشات " ، وتصدر صفيرا يشبه أزيز النعال .. كصوت مفاصل معدنية لباب عتيق ..

كان يجلس بوضعية ملفته .. داعية للسخرية والتبسم الباهت المتهدج ، حيث كان يستند بمقعده إلى الحائط بنطاعة شديدة .. بنمط من الإستهبال ، ممزوجة ببلاهة وبلادة ولامبالاه ، يدعم جلسته المضحكة المستفزة .. مظهره المزرى البشع ، الناحى إلى البذاءة والإشمئزاز ..

تعاف الكلاب الضالة الإرتسام والتوسم به ..

شعرا همجيا أشعث كالأمواج المتلاطمة والمتصارعة بعشوائية وغباء .. لم تهذبه وتصففه أسنان مشط منذ أعوام مديدة ، وكأن الرياح الهوجاء هاجت وماجت وزوبعت ، ورتعت فيه وعبثت ، فبعثرته وشتته وثرثرته ، وألصقته بحمأ لزج .. تجلط على مر السنين ..

كان أدنى شبها من الإنسان البدائى .. وأكثر قذارة وعفونة ، لحية طويلة ملتفة ومفتلة .. لم يتبدل حالها كثيرا عن حال شعره ، وسحنة ذابلة شاحبة .. مزقتها الخطوط والتجاعيد ، وجسدا نحيلا ممصوصا متداعيا .. ينخر الهزال فى بنيانه .. وتبرز من خلاله عضلات الهيكل المضعضع ، وقدمان حافيتان .. أشبه بسعف النخل ، وملابس مهلهلة رقراقة .. ممزقة ذات أهداب ومرقعة من كل جانب ، ومعفرة بالتراب آهلة بالبراغيث ، إستبان من خلالها جسده المعدوم العاجف المصبوغ من مخاضة الأوحال ، على نحو فج ، وكأنه فار من مجاعة قحط جامح .. لكأن الدهر أكل عليه وشرب ..

كان قد إتخذ مقعدا بالقرب من باب المقهى .. مجلسا خاصا ، واضعا إحدى رجليه المعظمة على الأخرى ، وجادت الأوساخ تنفض خلالهما عفنا .. وتثير البعوض ، وذبابا يدن دنينا ، ورائحة نتنة تنبعث فواحة .. أشبه بعبق الرمم المتعفنة ..

وثمة كلب جرب يلعق قدمه العليا ، دون أن يكترث ..

أو قل دون أن يشعر ..

كان كلما نهره صاحب المقهى " المعلم حصوة " ضائقا .. قام فزعا مفارقا مقعده مبتعدا ، حاملا قمامته وكراكيبه وهلاهيله التى لا تفارقه ، يتمتم ويغمغم ويزمزم .. بلغط عال مطلسم ومبهم غير مفهوم وكأنه يقرأ العزائم ، أو أصابه الهسهاس ..

وما إن يختفى المعلم حصوة عن ناظريه .. حتى يهرع صاحبنا فينكب كما كان جالسا على أحد كراسى المقهى ..

وما إن يراه المعلم حصوة حتى ينتفض مرة أخرى .. ينهره ويسبه بأقذر الشتائم .. ليهجر ساحة المقهى ، وهكذا دواليك .. سجال دائر طوال اليوم بينه وبين صاحب المقهى ..

وإن عاد ولم يجد مقعدا ، إنطرح بجوار المقهى مطلقا قدميه للأمام بما تعبئ وتثقل .. دون أن يحفل بشيئ

....

هذا هو فرات .. أو " حسن شمخة " ، كما أطلقوا عليه ، كل الحارة هنا تعرفه .. كان أكثر شهرة من شيخها .. وربما حارات أخرى مجاورة ..

ورغم حاله المزرى الناحى إلى الجنون .. إلا أنه يعى كل ما يدور حوله فى الحارة ، يعرف الأشخاص جيدا .. كما يدرك حكاياهم وحكيهم ..

وهو لا يلتصق بالجدار المجاور للمقهى .. ويلزمه عبثا ، وإنما يراقب نوافذ العمارة المقابلة ، وخاصة الدور الثانى .. حيث تقطن سماح ..

كانت له معها حكاية قديمة .. والجميع هنا يعرفها ، ولا تخفى حتى على أطفال الحارة .. وهى ما آلت به إلى ذاك الحال العاثر .. وحكايته تلك رغم عمقها .. وتوغلها فى الزمن .. يمكن إجمالها فى سطر واحد ..

" دمره حبه لها "

....

قديما كان فرات طالبا بالجامعة ، متفوقا ملتزما وخلوقا .. مشبوب الفؤاد ، كانت الحارة كلها تتحاكى بسمته الطيب وحسن عشرته ، كان حرا .. لا تميله أية مغريات ، إلا من بعض السمات التى عافها جل من حوله والمقربين منه .. وأهمها العناد الشديد ، إلا أنهم تكبدوا إحتمال تلك الصفة فيه .. خشية من

بطشة وسخطه ، فقد وهبه الله وفرة فى الصحة والعافية .. فقد كان فارط القوة ، طويلا فارعا عريض المنكبين فى ريعان شبابه ، يافعا قوى البنية ، شديد الشكيمة .. مفتول العضلات وضخم الكتلة ..

ورغم حلمه العميق ، إلا أن غضبه عارم جموح .. صعب المراس شديد الهياج .. ناح إلى العنف والفظاظة ، لذا كان جل شباب الحارة ورجالها يهابونه ويخفضون له الجناح ..

ويشاء القدر أنه من بين فتيات الحارة .. قد أحب سماح حبا جما ..أو قل عشقها ونشب فى فلكها ..

إلا أنه لم يجرؤ أن يخطو نحوها خطوة واحدة .. ولم تستطع صبابتها إليه أن يحرك فيه ساكنا ، لزم موقفه وجلا من ردة فعل أبيها ..

فقد كان فقيرا معدما .. لا آل له ولا عصبة ، يعيش على الكفاف .. فى شقة متداعية بالإيجار ، حيث مات أبيه فى سن مبكرة ، وما لبثت أن لحقت به أمه وتركاه صغيرا .. لم يتجاوز سن العشرين ، فعاش وحيدا بشقته .. يعمل يوما ويدرس يوما ، وهكذا سارت حياته ..

وحتى بعدما أنهى دراسته لم يتغير فى أمرهما شيئ ..
إلا أنها تجاسرت وأعلنت حبها لأبيها .. لتمهد له طريقا معبدا ليتقدم طالبا يديها وتجرعت وحدها عواقب هذا الإعتراف ..
تحملت ثورة أبيها .. وإفتضاح أمرها الذى أصبح حديث الساعة داخل البيت وخارجه ، فقد إستفاض خبرها وتسلل مارا من جدارا إلى جدار .. ومن بيت إلى أخر ..
ومما أكد أقاويل ناس الحارة وإدعاءاتهم .. رفضها المتكرر لكل من يتقدم إليها ووقوفها بالمرصاد أمام أبيها
ورغم ما كانت تبذله من جهود .. من أجل بقاء هذا الحب ، وإلحاحها الشديد ووقوفها بجواره .. لم يستطع فرات الإقدام على زواجها ..
فما زالت الظروف جاسية وخانقة ..
ولكن ما كانت سماح لتذعن بسهولة ، أركعت كل الطرق والسبل لتستقوى عزيمته .. وتشحذ إرادته ، لعله يتقدم خطوة واحدة ..
وما إن آتته الجسارة .. إجترأ وتقدم لأبيها ، دون تحسب أو إحتراز ، وقد حدث ما كان يتوقعه .. فقد رفض أبيها بشدة ،

وكان مدعوما بعلة وجيهة .. كيف يمنح إبنته الوحيدة لهذا المعدوم ؟ ، لم يشفع لهما رجاءات الجيران .. ولا إستجداء قلبيهما وكعادة فرات .. إنتفض العناد داخله فتحدى والدها .. ومكث يناصبه العداء ، توعده بأنها لن تتزوج إلا به

وما فطر قلب أبيها .. وأوقفه زهيد الحيلة مكتوف اليدين ، خروج إبنته من قبضته .. وترجيحها كفة حبيبها ..

ظلت ترفض كل من يتقدم لخطبتها مرارا وتكرارا ، ووالدها هو الأخر إنتصب معاندا لهذا الحب .. ولهذه الزيجة ..

وبمرور الوقت ..

وظهورهما المتكرر بالحارة ..

تفاقم الأمر وتجلى .. وساءت سيرتها ، أصبحت حديث النساء فى الأسواق .. والرجال على المقهى ، وكلما لاحت تمشى هنا أو هناك .. تلمز وتغمز عليها المارين

....

وفى يوم ما وأثناء مرورهما بجوار أحد المتاجر .. نبا إلى مسامعهم لغطا دائرا بين عجيج من الناس ..

سمع أحدهم يطلق عليها ألفاظا قبيحة .. تعافها الألسن ، وينعتها بالزانية ..

إستشاط غضبا .. وإنفجر الكبرياء داخله .. والإنتصار لعرضها نشب فرات بالرجل ودارت مشاجرة .. سمعت بها الحارة من أقصاها لأدناها ، فتجمعوا ثائرين .. وتعالت الأصوات .. وتأججت فورة الغضب ..

وفى ضجة الغوغاء وخضم الإحتشاد .. إلتقف فرات حجرا من أحجار الرصيف ولكمه به .. حتى أصابه بجرح غائر فى الرأس ، وأطبق بإحدى راحتيه على ثياب الرجل .. رافعا إياه وكأنه خرقة بالية ، ضاما سماح إلى صدره باليد الأخرى ، صارخا بقوة .. أعلن بصوت مدوى جهورى ..

أنه يحبها .. ولن تكون زوجة إلا له .. ليخرس كل الألسنة

ولكن زيدت الطين بلة ، ما هى إلا ساعات .. حتى قدم رهطا من رجال الشرطة للقبض عليه ، فقد إشتكاه الرجل بالقسم .. بتهمة التعدى بالضرب المبرح وإحداث عاهة مستديمة ..

لم يتجرأ أحدا من ناس الحارة أن يشهد ضده .. خوفا من إنتقامه

إلا والد سماح وحده .. شهد بما حدث ، رغم عدم وجوده بساحة النزاع من الأساس .. عنتا ونكاية به ، ولإبعاده عن طريق إبنته .. لإنهاء تلك العلاقة التى نغصته وأفقدته صبره وجلده ..

قضى فرات شهرا بالحجز الإحتياطى بالقسم ..

إلى أن وجد نفسه ملقى بغياهب السجن محكوما عليه بستة أشهر

....

أمضى مدته بالسجن ..

يبتلع غيظه .. ويتجرع كيده وسخطه ، متوعدا بالإنتقام

وما إن خرج من السجن .. توجه مباشرة إلى الحارة ثائرا ، ليجد ناس الحارة مشدوهين .. يترقبون كيف سينتقم ..

لم يلتفت أو يلقى لهم بالا ، هرع إلى منزل والد سماح .. يترصده لينتقم ..

ظل يطرق باب الشقة بعنف ..

وما إن فتحت له سماح ووجدته ماثلا أمام ناظريها ..

حتى إرتمت بين ذراعيه .. مستبشرة منتشية برؤيته ، خالته أنه جاء لرؤيتها .. بعد أن نفى عنها ردحا من الزمن ..

بينما تسمر هو مكانه .. متصلبا شاردا ..

ظلت تحكى له ما عانته أثناء غيابه .. من ضرب وإهانات ، وأنه تقدم لها أكثر من عشرة شباب .. وكأنهم تعمدوا طلب خطبتها نكاية به أيضا ، لم يحسبوا حسابا لساعة إنفكاك أسره ، جاءوها متعسفين .. ولم يستمهل أحدهم حتى تلتأم جراح فؤادها من علاقتها به ، لكنها رفضتهم قاطبة .. وظلت باقية على وعدها معه

لم تنكث العهد ..

ومن جراء ذلك تجرعت الهموم والأسى .. والتجريح والسخرية ، وإتهام أبيها بأنها أخطأت فى السابق معه ..

ظل فرات على حاله ..

واقفا متحجرا .. جاسى القلب ، كانت له فى زيارته تلك .. مأرب أخرى .. على عكس ما ظنت ..

سألها عن أبيها ..

ما إن أحست أن فى سريرته سوءا .. وأنه يكيد لأبيها .. حتى صرخت فيه ..

- **هذا أبى .. دعه وشأنه .. ودعنا نهرب ونتزوج**

إنتزع نفسه من بين راحتيها .. وهرع يبحث عنه حثيثا فى الحارة

وهى تلحق به منتحبة صارخة ..
وما إن إنبلج من باب العمارة .. حتى رمق أبيها أمام المقهى ..
هم إليه .. يحتقن وجهه بالغيظ والكيد ..
وما أوشك أن رآه والدها خارجا من منزله .. حتى زمهرت عيناه وغلى الدم وتغر فى عروقه .. وإستعر لهيبه
وطم ثجيج الغضب فإنفجر ثائرا ، إنتزع سكينا .. كانت موضوعة على قرمة حانوت الجزار بالجوار .. وإنتفض بها إلى فرات يريد أن يزهق روحه ..
لما رأوه أهل الحارة .. حالوا بينه وبين فرات ، إحتشد عجيج الناس ما بين شد وجذب .. وهاج الجمع ، إلا أنهم لم يستطيعوا صد رعونة فرات وعنفوانه ..
وفى نهاية الأمر ، أخذ والد سماح بتلابيب فرات ..
وإلتحم الرجلان بعنف .. فإحتربا وتلاطما ، وحمى الوطيس .. ودفق نهر الغضب ..
إلا أن الزبد بلغ الربى ، ففى لحمة الدهماء ومعمعة تنازعهم .. وإحتدام المعركة ..

صرخ أحدهم صرخة مكتومة .. تئن بحرقة .. من لظى النار الناشبة فى وشائج الحشا ..

إنغرست السكين فى الجانب الأيسر لوالد سماح ، لقد زجه أحدهم بها ، دون إرادة ، أثناء تدافع الحشد ..

تحسس بيده المرتعشة جرحه الغائر ، وما هى إلا ثوان معدودة .. حتى سقط لتوه صريعا .. فمات فى الحال ..

هرعت إليه سماح ..

خلى بينها وبين والدها ، تصرخ وتندب .. تكتوى بنار الفراق ، لقد قتل حبيبها أبيها ..

بينما وقف فرات زاهلا ، يحملق فى جثة أبيها .. مصدوما .

- **كيف مات الرجل ؟ ..**

لم يكن يعرف ..

نظر إلى سماح راجيا ومستجديا .. تفهمها ، متمتما .. بهمس مكتوم أخرس ..

- **أنا لم أفعلها ؟ ..**

لم تمر النصف ساعة ..

حتى إمتلأت الحارة برجال الشرطة والإسعاف .. حاملين جثة القتيل ، بينما قبض على القاتل ..

مرت الأيام .. وسريعا جرت التحقيقات وإتهم بجريمة القتل الخطأ .. ليضيف إلى ملف سوابقه سابقة أخرى أفدح ، وهذه المرة شهد جل آل الحارة بما حدث .. وشهدت هى بأنه هو من حطأ أبيها الأرض ..

حاول فرات أن يجد مخرجا من ورطته وأن يبرئ نفسه .. دون جدوى ، لقد نفذ السهم .. وثبتت عليه التهمة بعدما إستنفذ كل الحيل ..

وتمت محاكمته على جرمه ، فحكم عليه بخمسة عشر سنه من الأشغال الشاقة .. رغم كونه برئ الأديم ..

....

وسريعا أيضا ، عاد فرات مرة أخرى إلى ظلمات السجن .. وسرمده الحالك ..

وصراع أجاج تدور رحاه بينه وبين ذاته .. لم تنصت له سماح .. لم تلقى له بالا ، إنه لم يقتل أبيها .. لم يعرف كيف إنغرست السكين كل ما يعرفه .. أنها ليست يداه التى فعلت ..

قضى أيامه الأولى على وتيرة واحدة .. يحادث جدران السجن ويجادلها .. دون مجيب ..

أمضى سنوات سجنه .. يتجرع القنوط والإحباط والكبت ، ذاب مع السجن وهمومه .. يسبح فى أوحال الأسر ، باكيا على حريته التى فقدها .. ولم يحتاط حفاظا عليها ..

لم يتخيل آنها كيف سيقضى ذاك الردح المديد بالسجن

يصر على أسنانه فى حسرة .. ينتحب ، ويلعن حظه العاثر وسوء طالعه ، ويسب اليوم الذى غافلته فيه الخطوب وداهمته وتآمرت عليه ، ووجدت الذريعة لتجهز عليه .. وتأسره ..

فإختلست سنوات عمره ..

.. عاش حبيس القضبان والأسوار ..

يحصى الأيام يوما تلو الأخر .. وكأنها مسبحة تسقط منها حبة كل يوم ، ورغم أن الأيام كانت تمر بطيئة ثقيلة.. طويلة وعسيرة ..

لم تنتهى مسبحته بعد ..

بل زادت حباتها حتى أصبحت كالأغلال .. تكبل عنقه وأواصله ، تفقده الحركة والصواب شيئا فشيئا ..

وما لبث أن وقع فريسة للمخدرات التى يعج بها السجن .. دونما رقابة ، حتى أصبحت أقراصه المخدرة .. نمط يومى .. بعدما إستبد به الإدمان ..

إزدرد الطعام وزهده وجسا الحديث فى حلقه .. ما بقى إلا أن يبصق ويتفل قلبه ، وجال الموت ينخر فى بنيانه .. يخوى عظامه وينحل جسده ..

وأصبح الهواء راكدا ثقيلا .. يجثم على صدره ويخنقه رويدا .. رويدا ، وصار الأبيضان سيان .. أديم النهار .. كغسق الليل ..

لم يعد قلبه يختلج لشيئ .. وثمة أنين صامت مكتوم يئز بجدرانه ، إنذوت كل الآمال أمام ناظريه .. خبت الأحلام ووئدت الفرص ..

أمضى مدته فى جو معبأ بالتوتر والألم .. يعتصر من ضرع السجن الخوف والهم ، ويعض على يديه نادما ، ينتهب الفينة بعد الفينة .. والساعة تلو الأخرى ، اليوم تلو اليوم .. والسنة تلو السنة ..

ورغم طول الأجل .. لم يعتاد حياة السجن ، ظل مرتحلا بين شجونه .. يرتجى نفاذ عمره أو إنقضاء مدته

إلى أن وشك اليوم الموعود ..

علم أهل الحارة بإقتراب أجل خروجه .. فطفقوا يترقبون ، ينتظرون المارد .. الذى لن يرحم أحد ، ظنوا أنه سيخرج لينتقم ، لامناص أن السجن قد أصقل الجريمة داخله .. وأقساها وصار رئيس عصابة أو ما يضارع ذلك.

حتى أن بعضهم توعد ما إن يراه .. سيأب عليه ، كان فرات آنها .. حديث الساعة ، ماذا سيفعل ؟ .. وكيف سينتقم ؟ ، لن يغفر أنهم جاءوا بأصيلتهم .. وإنتصبوا ضده أمام القاضى ، وتسببوا فى زجه إلى السجن .. ودفعه خمسة عشر عاما من عمره ..

أودعوه الظلمات دون رحمة بكلمة منهم ، رغم علمهم بأن السكين لم يكن بيده ، ولم تكن لديه ذريعة القتل ..

لقد أجمعوا أمرهم وساعدتهم حبيبته .. فذبحوه بسكين تلم ، عبثا .. وقع فى يد أبيها ..

....

خرج فرات ..

شاحبا زاهلا ، ضعضعه الخدر وأفقده صحته .. جعله لحما على عظم ..

توجه مباشرة إلى الحارة ..

وما إن غاص فى دروبها .. حتى أبصر كيف يتحاشاه الناس .. يجافونه وينزاحون عنه ..

يترقبون .. مابين خائف ومتحفز ، وأخرين يحاولون التجاسر عليه ..

سار بتؤدة وسط الحارة الغاصة بالمحتشدين .. يسمع همهمة وتمتمة وغمغمة .. يعمدون إلى شيئ ما ..

أما هو ..

فقد كان له مأرب أخر .. يرنو إليه ، كان يبحث عن سماح .. يهيئ للقائها منذ خمسة عشر عاما ..

ترجل ماشيا إلى أن وصل إلى الساحة أمام المقهى ، نظر إلى بيت سماح .. متأملا ماذا فعلت به الأيام ، وقف محدقا .. والعجيج المهمهم من ناس الحارة يشهدوه بإستغراب إلى ما آل إليه حاله .. من ضعف وهزال ..

صعد العمارة .. وإستقر بالطابق الثانى .. وطفق يدق باب الشقة .. دون مجيب ، كاد أن يخلع الباب ..

إلى أن جاءته الإجابة من وراء باب الشقة المقابلة .. بأنه لا أحد بالداخل ..

نزل دءوبا يبحث عنها ، وقف أمام ساحة المقهى .. يسأل المارة بجنون وهوس ..

- **أين ذهبت سماح ؟ ..**

هل تركت الحارة ؟ ..

كان مشهدا مبكيا وداعيا للسخرية ..

إلى أن رآها تبتاع بعض الخضروات .. هناك .. عند أحد الباعة الجائلين على الرصيف بالقرب من المقهى ، كانت على الجهة الأخرى ..

تحرك إليها بخطوات ثقيلة ..متوجسة ..

إنها هى ..

لم يغيرها الزمن ، سوى بعض من الشعيرات البيضاء .. شابت رأسها ..

وما إن دنا منها حتى إتضحت ملامحها ، لاحت أثار الأيام وعلامات الشيب ..فثمة تجاعيد حفرت لها مسلكا عبر جبهتها ..

إستدارت بمحض الصدفة .. فرأته ..

رمقته زاهلة .. إعتراها إندهاش شديد ، ذهلت لما أحدثه السجن بطلته .. وهيئته ، ورغم توقعها لهذا اللقاء .. مثلها مثل باقى الحارة ، إلا أنها لم تتوقع حدوثه بهذه السرعة ، فهى لم تحاط له بعد وقبل أن يبدأ الحديث ويستطرد .. صرخت فيه بنبرة تهكمية .. ووجه سافر ..

- **أغرب عن وجهى .. يا قاتل أبى**

وأشاحت بيدها وإستدارت بجسدها ، خلت سبيله نافرة .. قبل حتى أن تبتاع أغراضها ، توقع أن تمهله قليلا .. إلا أن هذا لم يحدث ..

نظر إليها مبهوتا وهى تلج من باب العمارة ، وما إن هم أن يقتفى أثرها .. حتى أحس إصطدام كتلة عنيفة بخلفية رأسه ..

كان أحد الأهالى قد ضربه بعصا غليظة شجت رأسه .. فبلغت الشجة أم الدماغ وإنبضع الجلد .. عندما رأه يسأل نساء الحارة عن سماح ، ظن أنه يعترضهن ..

هوى إثر الضربة العنيفة على الأرض .. يتضور من وجع الألم ، نزف الجرح الغائر وبغ الدم بغا .. فإنسالت الدماء منسدلة بغزارة من رأسه .. وغطى ملامحه الثجيج الأحمر القاتم ..

رفع يده بتؤده متثاقلا ، وطفق يمسح جبهته ومحيط عينيه ، رمق لفيفا من ناس الحارة قد إحتشدوا حول جسده .. حاملين العصى والكراسى ..

كان مصدوما بالمشهد .. مشدوها بالمفاجأة ..

وقبل أن يتفوه بكلمة .. إنهالوا عليه ضربا مبرحا .. حتى أردوه كسيحا .. فلم تقم له قائمة ..

ظل على وضعه .. ملقى على الأرض والدماء تثج من كل أجزاء جسده لأكثر من ساعه ، إلى أن إقتربت منه إحدى البائعات على الرصيف .. تحسسته .. فتألم بشدة ، كان مازال على قيد الحياه ، حاولت أن تقيمه منتصبا .. إلا أنه كان قد فقد الحراك تماما .. ليس إلا لسانا يئن ويتألم ..

صاحت فى ناس الحارة أن يسعفوه .. ولكن لا حياة لمن تنادى .. وكأنه جربا ألقوه بالعراء ، خلعت عنها وشاحها .. وطفقت تبلله بماء جلبته من المقهى .. تمسح جراحه وتزيل سدل العلق المتجلط ..

لم تكن إصاباته خطيرة .. ولكنها كانت كاللمم موزعة بكافة أرجاء جسده .. إلا من جرح رأسه الغائر ..

وثمة كسرا أخر بإحدى ذراعيه ..
ضمدت جراحه ، وجبرت ذراعه المصابة جيدا .. حيث ربطته بقطعة خشب باقية من المعركة .. لتثبته حتى تلتأم العظام ..

....

ظل فرات مكانه ملتصقا بالحائط المجاور للمقهى .. لأيام طويلة ، والسيدة ترعاه وتحضر له المؤنة يوميا .. إلى أن إندملت جراحه .. وشفيت ذراعه ..
وخلال مدة رعايتها له ، أخبرته أنه بعد سجنه بعامين ..
تزوجت سماح من أحد أصحاب المتاجر الكبرى بالحارة ، ولكن هذه الزيجة لم تدم كثيرا ، إذ خلى سبيلها بعد ثلاث سنوات فقط فقد ضاق ذرعا .. من كثرة الأحاديث الدائرة عنها بالحارة وعن علاقتها القديمة به ، بل وأتهم بأنه قبلها على علتها وتزوجها رغم علمه بفضيحتها معه ..
وكانت قد أنجبت من زواجها ولدا وحيدا .. وهبت حياتها له وخضعت تحت قدميه ترعاه وخاصة بعدما إستردت معاش أبيها .. فتحصنت وقضت أيامها قاصرة الطرف رافضة للنكاح بعدها

وعاشت بالحارة كجمرة نار مغمورة بالثلج .. إلى أن خمدت نارها ، أمسك أهل الحارة ألسنتهم عنها ، وطاب لها العيش بينهم .. دون تجريح أو تنمر " وذاك قبيل خروج فرات من السجن بسنوات .. إلى أن حدث وقابلها فعاد وعكر صفوها .. "

بعدها باتت سماح تخاف بشدة على إبنها ، درأته من الخروج .. والظهور بين الناس حتى لا يترصده فرات ، فيقتله كما قتل أبيها إجتاح جأشها هوسا مخيفا .. مثله لها وكأنه ذئب .. ينتشى لسفك الدماء ونهش اللحم ..

لم تكن تعلم أن الخطوب قد هدمته وضعضعته .. ومزقته الأحداث وشتت أواصله ، فلم يعد يقوى على شيئ .. بعدما تكالبت عليه الظروف فهزمته .. وقتلت عناده ، وأودعت صحته وطاقته غياهب السجون ..

أما هو .. فلم يعد يفكر إلا فى سماح .. وسماح فقط ، رغم ما حدث له بالحارة مؤخرا جراء ملاحقته لها .. مازال يمنى نفسه بها .. وباللحظة التى ينالها فيها ..

كانت ظنونها وخوفها ومهابتها منه .. محض ترهات .. أوهام ، فهو ليس بقاتل أبيها أصلا .. كما تعتقد .. أرادها أن تعلم الحقيقة

، وأن يعيشا معا ما بقى من عمريهما .. وإرتضى أن يكون ولدها إبنا له ..

لم يلبث أن يسترد عافيته ، حتى طفق يترقبها .. ويتحرى عنها بالحارة ..

ومع أول مرة لمحها فيها ، إستوقفها قائلا ..

- **أنا لم أقتل أبيكى .. أقسم لكى لم أقتله ..**

أشفقت عليه مما أصابه فى السجن وما ناله من أهل الحارة بعدها ، فردت عليه بهدوء وترو

- **وماذا تريد منى الأن ؟ ..**
- **أريد أن نتزوج ، وسأرعى إبنك وكأنه إبنى .. صدقينى**
- **هذا لم يعد يصلح .. فأنا لم أعد أحبك .. مزقت صورتك داخلى .. فبيننا دم أبى ..**
  بت أبغضك بشدة ..
  ولن يجمعنى بك بيتا فى يوما ما ، إنسى الأمر .. ولتحمد الله أنى سأخلى سبيلك لتعيش .. ولن أخذ بثأرى منك .. لا تتعرض لى ، وإلا سأبقيك مدى الأبد تلعق جدران السجون ..

- **ولكن ....**

تركته متعاجلة بعدما رأت أهل الحارة يحتشدون مرة أخرى ، بينما لم ير هو تأجلهم عليه .. فظل منتصبا مكانه يتابعها ..

إلى أن قطع أحدهم شروده .. مهددا ..

- **إن لم تدعها وشأنها .. فسنرديك قتيلا ..**

سمعت سماح ما يقولون .. فوجدتها فرصة سانحة ، عادت أدراجها ..

إنتصبت بينهم تؤكد لهم أنه يعترضها بالطريق وإحتمت بالحارة وناسها ورجالها الغيورين .. لترحمه وترحم نفسها من جنونه .. وأوهامه ، وحتى تزيل عن عرضها وصمة علاقته بها ..

لكمه أحدهم لكمة قوية إثر إدعاءاتها .. حتى أسقطه على الأرض ملازما الحائط ، قائلا ..

- **فلتبقى هكذا .. كقطط الحارة الشريدة وكلابها النتنة .. إن تعرضت لها أو لواحدة من نساء الحارة .. فستلقى حتفك فى الحال ..**

وتذكر تلك فرصتك الأخيرة لتعيش بيننا .. ولولا أنا نحفظ لأبيك وأمك عشرتهما الطيبة معنا .. ووفاءا لرفاتهما .. رحمهما الله ..

لما بقيت هنا ليوم واحد ..

إنفض الجمع من حوله .. وتركوه غارقا فى صدمته .. ورشده الذى ما كاد إلا أن يفقده ..

إستوطنته حيرة شديدة ، يحادث نفسه .. وكأن به مس من جنون

- **أتلك سماح ؟ ..**

ماذا حدث لها ؟! ..

ماذا غيرها وبدلها ؟!! ..

لم يؤثر فيه توعد أهل الحارة مثلما أثر فيه كلامها .. لقد صدم أشد صدمة .. وإهتز بحديثها ..

يالا خيبة رجاءه .. وما منى نفسه به ، عاد لها راجيا .. فلفظته بعنف دون أن تأبه به .. ولا بقلبه المكلوم ..

جثم الهم على فؤاده ، وإعتصرت الخيبة ما بقى به من أمل .. لمن يعيش الأن ؟

وهو من هو ، عاش حياته وقضى قرابة نصف عمره فى السجون .. لأجلها ..

وهى من هى ، تنصلت منه وخلفته .. وكأنه رفات أيام بالية .. فألقته هو وأيامه بأقرب مودع قمامة ..

ظل ردحا مديدا يحادث نفسه ..

ويلومها ..

ويوبخها ..

ويشفق عليها ..

ويجادلها ..

ويعبث معها ..

حتى ختم على منطقه .. فأمسك عن الكلام المباح ، ورقأ دفق الشعور .. متشفيا دون إرادة ، لا يدرى قبالة حاله من دباره ..

أصابته بلادة الأيام الثقيلة وبلاهة الصدمات .. فلم يعد يدرك ما حوله ، ولا يحسن محط الكلام .. وذاك إن حدث وتلفظ صدفة أهمل ذاته .. وهام على وجهه ، حتى أصبح بالفعل كقطط الحارة الشريدة وكلابها النتنة ..

فبدا بالنهاية بالهيئة التى يرونه عليها الأن ..

....

وكما يفعل " صرصار القهاوى " ..

يعبث هنا وهناك .. يلملم فتات الطعام .. الباقى من الأفواه ..

مضى هو الأخر .. دون إرادة .. يلملم الأشياء والحاجيات ، هذه بعض الخيوط ، وهذه خرق ممزقة ، وثمة لفيف من الأوراق البالية ، وبعضا من قشور البطيخ ، وهذه فردة نعل ..

وهذه .. وهذه ..

مضى يلملم بواقى المتاجر .. وحسافة الحارة ، يسير ببعضها .. ويتساقط أكثرها ، الأهم أن يبقى شيئا بيده

عاش يطعم صدقات بعضهم .. إما كسرة عيش أو ثمرة خضار ، أو قضمة دهن نيئ ..

وهكذا كانت حياته ، يرتدى خرقا باليه ، ويداعب الأطفال الذين ما يلبثون أن يضايقونه .. فيقذفونه بالحجارة والحصى والزلط ، فيتلقاها بجسده دون شعور ، لم يكترث بسخرية المارة .. ولا سباب أهل الحوانيت .. كما لم تكترث به الحياة ..

ولاسيما المعلم حصوة صاحب المقهى .. الذى ضاق ذرعا به وبسخافته ، فما يلبث أن يختفى عن ناظريه .. حتى يهرع إلى أحد

الكراسى .. واضعا رجلا على رجل ، لاما حوله البعوض والقاذورات والرائحة النتنة ..

هذا هو فرات..

أو " حسن شمخة " ..

أو " صرصار القهاوى " ..

أمضى النصف الثانى من حياته .. كمجذوب ملفوظ .. ممقوت عفن الطلة ، يجافيه المارة ويتحاشونه .. فقد كان يعترضهم بسخافاته وعبثه ، ومشهده المؤذى ..

تائها فى زحمة الحارة ..

كما تتوه البغبغة والكلام المباح على أفواه العابثين ..

والحقيقة .. أن طوارئ الدهر طحنته .. والأعراف والتقاليد سحقته ، ومزقته أحاديث القيل والقال .. وبالنهاية أبت عليه اللامبالاة .. فأخرست خفقان قلبه .. وأصابت عقله بالشلل والكساح ..

عاش كالضيف الثقيل ..

خلق لتعبث به الحياة وناسها ..

كلمسة ريشة .. أو بقعة لون باهتة ..
وقعت عن طريق الخطأ .. على لوحة الحارة الجميلة ..
المحقة .. المتزنة .. فشوهتها ..
فلما يلبث أن يختفى .. ويذوب بين عجيج الناس وتلاحمهم
حتى تراه العين مرة ثانية .. فتشمئز ..

" تمت "

أصل الحكاية

قاربت الساعة العاشرة صباحا ..

انتفض فرات منزعجا إثر ضجة وجلبة تزحم الغرفة ..

نظر ليجد أمه ورهطا من نساء الحارة يفترشون الأرض ، وثمة حديث ممل ومكرر يتطارحونه .. عن المطبخ ، وعن هذه التى قالت ، وتلك التى فعلت .. والشيطان يرتع ويملى عليهم ما يقولون ..

عَلَى صياحهم ، ولم يكترثوا لكونه نائما .. شبه عارى بالقرب منهم ..

هرع من مستقره ببعض من ملابس داخلية ذات أهداب .. حاملا بنطاله .. متجها الى جوف المنزل يبحث عن مكان أخر ليستأنف نومته ..

إلتقم بعضا من الأقراص المخدرة ، وألقى بجسده متثاقلا فى باحة المنزل وغط يبغبغ فى نوم عميق ..

كانت تلك عادة أمه أن تستضيف نساء الحارة الصغيرة فى غرفة الضيوف .. حيث أن الحارة قد إختنقت و ضاقت بناسها ، فلا

منافذ ولا تهوية ، وكانت تلك الغرفة هى المكان الوحيد المميز فى الحارة على إمتدادها .. فلها إطلالة مميزة على الطريق الإقليمى المعبد الواصل للمدينة ، وثمة أشجار تظلل المدخل .. علاوة على مصطبة كبيرة بطول الغرفة ، فكانت ملاذا مريحا يلتجئ إليه نساء الحارة كل صباح ..

ولسوء حظ فرات .. أن هذه الغرفة هى أيضا مرقده الوحيد بالمنزل الذى غاص بأهله .. إذ أنه العاطل الوحيد ، فلم تتاح له رفاهية النوم الهنيئ فى غرفة خاصة كباقى إخوته ، كما أن طقوسه وأوابده سببا أخر لإثناءه وحيدا ، ففى أى وقت قد تجده غارقا وسط عجيج من الكتب واللوحات .. التى تزدحم بها الغرفة فى عشوائية مزعجة ، حيث كانت لديه ملكة الرسم ويهوى المطالعة بشدة

وفى ذلك الجانب فإن له فى الحياه رؤى عجيبه وغريبه ، فبرغم مهاراته المتعددة لم ينتج عملا يحوز إعجاب أحد من ناس حارته أو حتى أسرته .

ومما زاد الطين بله ..

أنه كان مدمنا لعقاقير مخدرة أوقعه أحد زملاءه تحت أسرها .. ولم يفوت سبيلا متاحا للتعافى الا وسار فيه .. دون جدوى .. فأصبح ألعوبة الخدر والأوهام ..

....

بعدما أنهت أمه إجتماعها المعتاد قبيل شمس الأصيل .. همت الى حيث ينام فرات.. ومضت تلكزه بيدها لتفيقه من نومته التى طالت حسب تعبيرها .. فكفاه نوما وإستنطاعا ..

كان فرات قد تعود على طريقتها الفجة فى إيقاظة .. وألفاظها اللاذعة الجارحة ، قام ضائقا .. يبحث عن مأوى أخر ..

ولكن على غير ما إعتاد عليه .. إستفاضت أمه فى إهاناتها وأسهبت فى سبابها .. مما أثار سخطه وحنقه وإكفهراره ..

ولما بلغ السيل الربى .. لم يدر بحاله إلا وهو يقارعها بطريقة وقحة فظة ، ونشبت بينهما مشادة كلامية .. أهانته أشد إهانة ووصمته بأردأ النعوت ، إنتهى بها الحال بأن طردته من البيت ، فلا جدوى من وجوده ..

فأخته الصغرى أكثر فائدة منه ..

هى من هى ..

تخرج قبيل شروق الشمس لتعمل وتكد فى أحد المصانع .. من أجل تأمين إحتياجهم وعوزهم

وهو من هو ..

ينتظر نقودها لينفق بسخاء على أقراصه المخدرة وسجائره العفنة ، ولا يسلم أحد من سوء منطقه .

كان سبابها مهينا وإتهاماتها جارحة .. لم يهبه الفرصة للإستكانة بعدها ..

إستشاط غضبا وهاجت مشاعره .. وغلى الدم فى عروقه ، ولكن ما كان فى جعبته إلا أن يكظم غيظه ، ذرفت عيناه دموعا حارقة .. مالم تذرفه من قبل ..

نظر إليها .. وقد صعب عليه أن يتحمل إهاناتها ..

- **" سامحك الله يا أمى "** ..

قالها وقلبه ينفطر من قسوتها وصلفها ، لم يتوقع هذا الوابل من جفاء الجأش والإستغناء ..

لم يدرى بحاله إلا وقد هرع الى شنطة صغيرة .. لملم ملابسه .. والباقى معها من كبرياؤه وكرامته المهدرة ، خرج متآزفا والخيبة

تجثم على صدره .. والحسرة والغمة يمزقانه ويستعران بفؤاده .. دون إكتراث ..

....

بضع دقائق ..

كان فرات على مشارف البلدة يحمل حقيبته .. وبقايا جأشة وجسارته ..

مازال يفكر ماذا سيفعل ؟ ..

كلما سار خطوة استوقفته آلامه الموجعة .. ووخذا قارصا يقبض قلبه ، وهَمّا أزال نور أيامه وعكر صفوها وإستوطن عمقه وسريرته ..

جلس متثاقلا على صخرة صغيرة عند حافة الطريق حزينا يائسا .. تتلاعب به الهموم ، يحادث نفسه .. التى ما لبثت أن إستخرطت توسوس له وتهمس همسا خبيثا

- **أهذه أمى التى ضحيت بأبى لأجلها ؟! ..**

أهذه أمى التى تركت حياة الترف وإرتضيت قسوة الفقر والإحتياج فقط لأكون بجوارها؟!

أهذه أمى التى لم تلقى رئيفا ورحميا بها .. مثلى ؟! ..

كم عايرها إخوتى ، كم إستغلوا ضعفها ، كم عليت أصواتهم عليها فى غلظة ، كم إستقبحوا أفعالها ووصموها بالغباء والجهل والحمق ..

وكنت أنا وحدى اليد الحانية والقلب العطوف ، واللسان الذى لا يسمعها إلا أطيب الحديث وأرحمه ..

أهذه أمى ؟! .. التى حرمنى أبى إياها أكثر من تسعة عشرة عاما ، وما إن واتتنى الفرصة .. هربت الى أحضانها .. ولذت بها .. لأكون رجلها وسندها فى هذه الدنيا وضحيت بدراستى لأجلها ، فلم أجدها إلا عجوزا هزيلة ضامرة .. أنهكها المرض الوجيع وأعيتها الخطوب .. فلم آبه وأعطيتها حنانى بدلا من أن تعطينى هى إياه .. لتعوضنى عن سنين حرمانى ، إرتضيت قسمتى ولم آبه

- **أهذه أمى ؟!**

كانت صدمته لا توصف ، فلم يكن يتوقع يوما أن ينتهى به المطاف إلى تلك النهاية ، فقد ضحى كثيرا لأجلها وأنكر ذاته .. وتنازل عن جل أحلامه جملة واحدة ولم يحفل لما ضنت به الدنيا

ولكن باءت تدبيراته بالفشل ، وعاد أخيرا يسير وحيدا والخوف والوحشة يقتلانه ..

وفى حقيقة الأمر أن ما إنتهت به أحواله .. من فشل وإدمان وبطالة .. كان نتاجا لغربته فى بلدة أمه وهجران عائلته له ، والظروف الجاسية التى تربى فيها تحت كنف أب لا يهتم وزوجة لا ترحم ، فنشأ يائسا ومحبطا ، علاوة على العديد من العلل الجسدية التى نمت معه جراء عدم عناية زوجة أبيه به فى صغره ، فضاح كلما بحث عن فرصة .. وقفت ظروفه السالفة وعائلته الثرية حائلا دون إقتناصها .. حاربوه نكاية بأمه ، فوقع أسيرا لتدبيراتهم وكيدهم ووشايتهم .

....

جن الظلام ..

ومازال فرات جالسا عند حافة الطريق .. يطبق عليه سكون وصمت كئيب ..

إستقام يلوح لسيارة أجرة قادمة .. لكنها لم تقف ، جلس متهدجا بهمه وكربه .. يتطلع إلى الطريق ، مرت برهة مديدة دون أن تمر سيارة واحدة ..

قاربت الساعة العاشرة مساءا .. ولا جديد ..

مرقت سيارة أخرى مسرعة .. ومازال جالسا بائسا .. يترقب الطريق الموحش ويستشف مجهولا هو قادم إليه ، وثمة صرخة طفلتين عند كشك بالجوار تقطع حدة يأسه .. بدا أنهما تائهتين ، إشتدت ظلمة الطريق وعتمته وبدت أنوار الكشك كبرق خافت ووهج غارق فى حشا الظلام ولجاجه يبحث فى رعونة عن مساحة أكثر إتساعا ..

كانت كلما علت صرخات الطفلتين كلما إزداد قنوطا ، ورغم الأشباح التى تحوطه من المارين الطوافين هنا وهناك إلا أن الوحدة لم تفارقه .. غارقا فى روعه السقيم

بدا كالطفلتين الصغيرتين .. عيناهما تجوب المكان الغاص بالظلمة فى حيرة وغموض .. بعدما إلتهمهما عجيج الطريق بعيدا عن أحضان أمهما ..

حمل حقيبته ..

عسف الطريق .. غاص فى الدلجة القاتمة باحثا عن منفذ ينقذه من إحتقان تلك الساحة

بدأت الصرخات تخبو شيئا فشيئا .. ويخبو معها ضميره ، ونخوته بعدما عجز عن إيجاد مسلكا لورطتهما .. أو قل لم يحاول .. أعمته كربته ودفعه شروده بعيدا ..

خمدت الأجواء مع إختفاء تلك الأضواء الفاضحة ..

كانت الظلمة كعباءة تحتويه وتحجب عيوبه عن أنظار الناس ، غمره هواؤها العليل .. البارد كالثلج .. أحس أن ثائره قد هدأ ، وشعر بشيئ من الراحة والإنتشاء المغلفة بالمواجع .. وشعور المهضوم حقه والمكسور خاطره ..

لم يقطع خلوته الحالمة .. سوى صوت يتسارع متقاربا .. مخترقا حجب الظلام ..

كانت صرخة أنثى .. تهرول وراءه قادمة من بعيد ، ويبدو أنها هى الأخرى هاربة تبحث عن الأمان والمأوى

بدت تلك الليلة وكأنها مسرحا .. أبطاله أربع ..

هو .. والطفلتين .. والهاربة ، جمعتهم تلك الليلة وذات البقعة بعد أن ضنت السماء وطغت ونكثت عهودها معهم

إلتفت لبرهة مستطلعا ..

إنفلتت الحقيبة من قبضته فسقطت فى تثاقل عنيف ، مضى يفرك مقلتيه وكأنه يعتصر منهما الدمع ، مازال هناك بقية ممن يأبهون لأمره .. بعدما عانى تبعات قلة الإهتمام وعدم الإكتراث وسوء الفهم لأطواره وقراراته

تقدمت اليه فى لهفة وشغف ..

- **رايح فين ... ؟!**

ردد فى خيبة ثقيلة جاثمة

- **خلاص .. رايح للخلاص**

نكست رأسها وأقامتها فى عجالة وواجهته .. إحتضنت وجهه بكفيها ..

- **تتخلص من مين ؟ .. منى ؟!**

كانت سمر ، تحبه ولكن على إستحياء ، كانت تلك المرة الوحيدة التى تجاسرت على حيائها .. وحبها الخجول .. تجاهلت مساحات الجفاء بينهما إذ لم تجد مناصا من الإعتراف والإجتراء .. بعد التطورات الأخيرة ..

أما ذى قبل ..

فلم تنبس بكلمة واحدة له بمعنى الحب .. بعدما غمرها شوقا ولهفة ، تعشق فيه رجولته ومثابرته .. وكفاحه وجلده ، وصبره على كل ما يعانيه من ذويه ..

هى الوحيدة التى رأت فيه كل تلك السمات والنعوت

ولكن هو من هو ..

المتعلم .. ذو الذكاء البارع منقطع النظير ، والفراسة الحاذقة والقريحة المعبدة بشهادة الجميع ، مداركه واسعة .. مشبوب الفؤاد ..

إلا أنه وقع فريسة الإكتئاب المبهم والإحباط الغرائبى .. بعدما إنهارت قلعة مستقبله .. طوبة إثر الأخرى ، فكان صيدا سيغا لهواجس الجميع حوله ، منهم من يفسر ما حدث له بالحسد ، والأخرين يفسرونها بأن أحدهم ربطه بأحد الأعمال السفلية ..

لم يلتفت الى أى من تلك الأضغاث والترهات .. إلا مؤخرا ، بعدما ذهبت جل محاولاته لإسترجاع ما فقد أدراج الرياح ..

كانت سمر مفتونة به .. مشدوهة برزانته ومثالياته ، تراه فذ عن نظرائه ، إنه الشاب الوحيد فى قريتها الذى إستطاع الإلتحاق

بكلية الهندسة .. كانت تتباهى أمام ذاتها عندما تجد أن جل شباب القرية يرتجى فقط القرب منه أو حتى السير معه ..

كانت ترى فى هذا .. مجدا ما بعده مجد ، وتمنى نفسها بيوم تلتقى فيه القلوب لتشاركه نجاحه .. ولتقف له سندا .. وحبيبة عاشقة إلا أن القهر إعتصر حبة قلبها .. عندما توقفت سنوات دراسته عند السنة الثالثة بالكلية .. ولم يتقدم بعدها خطوة واحدة ، وإضطر إلى تأجيل أربع سنوات دراسية

تكبد خلالها كل أوزار الأخرين من ذويه .. وحملها نيرا على عاتقيه ، إلا أنه لم يفصح يوما عما بداخله ..

وعندما قرر البوح ..

هاج الجميع .. ووصموه بأنه المذنب الوحيد ، وقاذفوه الإتهامات ، كانت تترقبه من بعيد .. وتسترق السمع ..

وتتقهر بالحسرة ..

ورغم كل الإتهامات التى لقاها فرات من آله وجيرانه ..

كانت سمر وحدها تراه مؤهلا لمستقبل بارع ، تنقصه فقط فرصة

وهى بشخصها الضعيف .. لم تعهد مدارس ولا جامعات .. ، كل ما تعنيه له .. أنها مجرد إبنة جارهم ، ولكنها ليست ككل الجيران .. وحدها كانت داعمه الوحيد فى أزماته ومحنه ..
كان حبها له .. مبتورا ، تعشقه وهو لا يأبه بها ، تحت ناظره طوال الوقت .. ولا يتنبه لوجودها إلا عندما تختنق به الدنيا ..
كان يعى أنها تحبه .. لكنه لطالما صارع هذا الحب .. وضيق عليه الخناق ، وهى لم تستكن .. ولم يهدأ لها بال
لم يكن يراها زوجة المستقبل المناسبة .. ليست الفتاه التى عاش يحلم بها ..
مازالت بقية من أنفاس الطموح داخله .. يربو الى مستقبل وزوجة وحياه أخرى .. أما هذه فلن تفهمه ، لن تقدر ميوله ورغباته .. لن تستوعب طموحاته .. لا تملك إلا قلبا يحب ..
أما هو .. فكما يريد قلبا يحتضنه كان أيضا يريد عقلا متفتحا يقاسمه ويشاركه .. ويشاطره النجاح ، ويسعى معه ويحفزه ..
كانت سمر تعلم جيدا الفارق الشاسع بينهما .. لكن الأمل لم ينقطع يوما من فؤادها .. كان دائما ما يتجدد ويتخلق من عدم ، دائما ما تتعلل بأنها وحدها القادرة على إستيعاب ألامه ، وحدها

تعلم ظروفه .. رغم عدم إعترافه بها .. إلا أنه حتما سيعرف أنها هى فقط من تستطيع تحمل عذاباته ..

كلما ضاقت به الدنيا لم يجد غيرها تسمعه .. فترضى غرورها بأنه أخيرا قد إقتنع ، لكن شيطان الوهم ظل يداعبه ويمنيه .. بالإنفراجة بعد هذا الضيق الخانق ، ويشغل لبه بالمستقبل العظيم إلتفت إليها فرات.. مختنقا بنفاذ الصبر .. فدفعها دفعة عنيفة حتى هوت من صداها على الأرض

- **إيه اللى جابك ورايا ؟ .. إنتى ما بتفهميش ؟ سيبينى وخلصينى من الرابطة الخانقة دى .. عندى اللى يكفينى .. خلصينى من الألام اللى مصرة تجيبهالى دى**

رفعت ناظريها والدموع تنوح على وجنتها

- **ألام ؟! ، الألام دى ما بتفارقنيش ، الألام اللى إنت بتتكلم عنها دى كل يوم بتتجدد جوايا .. كل ما بشوفك بتضيع قدامى ..**

اللى إنت فاكره نجاح هو اللى بيجيب لك الألام ، إنت اللى بتجنى على نفسك ..

قطب جبينه مزدريا ولمعت بعينيه عبرة ..

لم تنبو له كلمة ، وأطرق فى صمت مطبق .. لا يحفل بشيئ إلى أن لمح سيارة قادمة .. لوح إليها بيده فوقفت ، رفع حقيبته حثيثا .. وإندس فيها ، هاربا من تلك الساحة الخانقة وهذا اللقاء المبتور ..

إندفعت السيارة فى سرعة خاطفة .. كسهم مارق ..

وهى تهرول ورائها وتناديه بحرقة .. بصوت يلتاع تعرقله الدموع ، وصراخ متهدج بلظى الرجاء وسطوة خيبة الأمل ..

إنقطع صوتها بمجرد عبور السيارة النفق الصغير المحفور فى نهاية الطريق .. إلا أن صداه ظل يطن نافذا إلى أعماقه .. يتهدج ويتردد كأجراس تأبينية ..

دائما ما تشعره الأيام أنه يسير فى الطريق الخطأ ، وأن هذه العلاقة ضلت طريقها فى مهب الريح .. وحتما ستندثر وتخبو .. وتنمحى أثارها ..

ليست هى الفتاه الملاءمة .. وإختيارها خطأ فادح ، إلا أن كل ما خاله صائبا فيما سبق .. كان أيضا خاطئا ، والغريب أن رغبة ما تدفعه دفعا نحوها ، وما من يوم يمر إلا ويفكر فيها ..

فى الواقع ..

بدأت نفسه تميل إليها .. وتتضوع إشتياقا لرؤياها ما بين الحين والأخر ، ولولا قائمة التنازلات التى تمتلئ وتزداد يوما بعد يوم لأفصح لها عما بداخله .. فجل أحلامه أصبحت أثقالا ينوء بها عاتقه ..

خطواته باتت أبطأ .. وطموحاته إعتمدت إتجاها واحدا عقيما .. شطرها

كان مضطرا أن يترك نصف حقائبه على الرصيف .. للحاق بقطار قد فارق المحطة ، ولا يعلم هل هو قطاره أم أنه أخطأ الوجهه ..

ولكن ثمة ضريبة زمنية سيتحملها إن لم يلحق بهذا القطار المغادر سينتظر ..

سينتظر طويلا ..

وربما لا قطار بعده ..

والأغرب أن المحطة تستقبل قطارا أخر مقابل .. قادم من بعيد .. ينفض الثرى أمامه ، ربما يعطيه فرصة جمع حقائبه وركوبه ..

بدا كمسافر لا يعرف وجهته ، والقطارات تتلاهث أمام ناظريه .. كما تتلاهث الأفكار خارجة من رأسه .. تتناشب فى كل صوب وإتجاه ..

كانت غادة .. زميلة دراسته ..
هى من تستقل القطار الثانى المقابل .. وعليه إيجاد قرارا صائبا .. بين بداية وحيدة من نوعها لا يرغب أن يبدأ منها ، وأخرى يرى فيها بداية الألف ميل ..
كانت البدايتان تؤلماه .. حائرا بين من تستجدى حبه ، وأخرى يستقطر حياته وأشواقه لأجلها .. فى علاقة يشوبها الريب وقلة الثقة ..
لم يكن إرتباطه بغادة .. مرضيا .. إذ أنه لا يوجد حب بهذه الشاكلة ، شكوك ووساوس وألام ونقاشات حادة لا تنتهى ، فاض كيل كليهما .. ولكن لا يلبثا أن يفترقا حتى يعودا والشوق يعتصرهما ، وما إن يتعاتبا ويروق لهما الحال حتى يتعكر صفو حبهما ..

إمتدت علاقته بغادة لأكثر من عامين .. الشوق يحرق قلبيهما .. ولم يجرؤ أحدهما على البوح للأخر بحبه ..

حتى إفتضح أمرهما للجميع ، ولكن هى من هى .. جاءته فى أحلك فترات حياته ، بدت هى الأخرى .. كقطار يفارقه .. وهو يلحق به متباطئا .. تثقله الحقائب !

إستفاق فرات بغتة .. متداركا حاله بعدما أرجأ طويلا .. يفكر ، تفرس الطريق مليا .. وعيناه صوب الأفق الأتى ، إبتسم إبتسامة باهتة ساخرة ذات مغذى .. متهدجة بالإنكسار ، ظل ينظر إلى السائق .. نظرات متواترة ، وأخيرا وطن العزم .. فأوقف السيارة .. مذعنا ، وإستقل غيرها فى عكس وجهته ..

عاد ليجد سمر حيث تركها .. تغض فى بكاء مرير ، ما إن رأته حتى إنفرجت أساريرها وإحتضنته بحميمية شديدة .. وحفاوة غامرة ..

ضمها بين ذراعيه وكأنه وجد أخيرا ضالته .. ذاب الجليد ، إغتمرا فى نشوة اللثمات ودفئ الإقتراب وكأنهما جسدا واحدا ، والبكاء يرسم لقاءهما بأنات الدموع

كلاهما يبكى بمرارة ، هى تبكى على ما فاتها من عمر .. قبل نشوة هذا اللقاء ، أما هو .. فبكاؤه على هذه الدنيا الزائلة .. التى ظلت تدفعه بعنف من قمم الوصول الى هذا اللقاء المنحدر ، هى تشكو وهو ينتحب ..

لقد إنتظر فى المحطة حائرا .. حتى إستقل أخر قطار ،لم يكترث هذه المرة بوجهته ..لم يفكر فى النجاح أو الفشل ، كل ما شغل لبه .. النجاة من قسوة الإنتظار لساعات أخرى ..!!!!!

أمسكت بساعده وجذبته للعودة ، حمل حقيبته المكتظة بالأمور والوقائع والأحداث ودس يده فى جيبه وأخرج أقراصا من حبوبه المخدرة وإلتقمها فى غلظة وفظاظة ، نظرت إليه بإستغراب ..

- **حبوب إيه دى ؟!! ..**

قال لها وعيناه تستجدى الغفى والهذيان

- **بكرة تعرفى ...**

مشيا الطريق حتى وصلا إلى مدخل الحارة ، وجد أمه تجلس على المصطبة أمام باب المنزل .. بيدها مسبحتها ونير الحزن والهم يثقل عاتقيها ، والترح يغطى ملامحها

أوقفها ودخلا غرفة الجلوس ، ألقى بحقيبته على أريكة صغيرة .. وإنطرح بجسده على أخرى حيث كان صباحا

وغاص فى نوم عميق ..

" تمت "

كنز الأعاجم

نشبت النيران فى بيته

هاجت وماجت وزمجرت .. تلظت ، وتلاقفت اللهيب والشواظ ، توهجت وتأججت .. وكأنها نار من ويل ، بثقت الشظايا واللفح .. حتى تبر البيت عن أخره ..

هرع فرات يتفقد أولاده وزوجته ، ضمهم الى صدره ..

وشجت نفسه وإستراحت .. وإطمئن فؤاده ..

تنفس الصعداء .. وحمد ربه أن أعتقهم من عقال النيران ، فلم يصيبهم مكروه ..

وما لبث أن إستفاق للدمار الناشب خلفه ، وقف شاردا زاهلا .. ينظر إلى أملاكه البائدة تحت النيران الكاسحة .. نظرات مخدورة ، شاهدها وقد تحولت الى رماد ، بدت نذير شؤم لأيام قاسية قادمة .. بعدما تضعضع به الدهر ، وأصابته لعنات السماء وسخطها ..

إصطكت قدماه وإختل توازنه .. خارت قواه ، وكأن روحه تخبو من جسده .. رويدا .. رويدا ، حاول اللفيف الثائر حوله جمع ما تبقى من حاجياته .. إلا أن كل شيئ أصبح رفاتا ، فأخشاب

البيت والأثاث قد تفحمت ، والملابس والستائر إحترقت ، والأسرة الحديد والأوانى سالت ووشجت بالرفات .. فأصبحت كثجيج القار الأسود الغربيب .. ثم تكتلت ..

وفى خضم هذه الحرب الثائرة ..

فجأة .. وعلى حين غرة ، إنتصب فرات واقفا .. مشدوها فاغر الفاه ، رقأت الدماء فى وشائجه ، وتغيرت ملامحه وإعتراه إرتياع شديدا مفعما بخرس وتحجر مستتر .. وكأنما تذكر شيئ ما راعه وأرهبه ..

هم وجلا الى النار الخامدة .. وقد سكن لهيبها ولم يطفأ جمرها ، وهى تخبو شيئا فشيئا .. ومازالت تنفث سحبا متصاعدة من الدخان الحالك ..

تتخبط قدماه جزعا ، ما إن يتحرك خطوة حتى يتعثر فى الأخرى .. وكأن البسيطة تميد بأثقالها وتموج تحت قدميه ، وما إن رآه الجيران تعجبوا لأمره ..

ولهياجه غير المبرر ، لحقوا به قبل أن يؤدى بحياته .. ولا يدرى أحدهم عما إنتابه شيئ ، أمسكوا به وقبضوا على ذراعه .. ظل

ينازعهم وينازعهم حتى أفلت منهم .. وولج إلى حيث البقايا والرماد ، يستحث الجمر أمامه حثيثا .. دون إرادة ..

وعند موضع ما ، مضى ينبش الحطام بيده هائجا ثائرا .. حتى إلتاعت بسخونة التراب الأسود المتفحم فعمد الى عصا من الخشب " كانت باقية من سقف المنزل "..

وطفق يدسها فى الرفات يذريه ذريا ، يقلب وينبش ويحفر .. كالذى يتخبطه الشيطان من المس ، يقلب نادبا ، وينبش منتحبا ، ويحفر صارخا ..

جعل عالى تلك البقعة سافلها ، ومازال الناس فى حيرتهم من أمره ..

خالجهم الظن أن الفاجعة قد أصابته بخبال فأذهبت رشده وصوابه ، حتى زوجته خالت أن الحسرة أنزلته .. ونالت من جأشه ..

أما هو .. فمازال يصرخ ويعبث بالرماد هنا وهناك ..

حتى جاب الساحة المحترقة أقصاها وأدناها ..

والحقيقة أن فرات كان شخصا مقيتا خبيثا .. يتحاشاه الأهالى ، لا يعلم أحد بخبايا نفسه ومكنونها .. وما إنطويت عليه ، فقد

كان رجلا موسر شديد الثراء .. لكنه أبدا لم يبدى ذلك ، ولم يذكر أن حدث بالنعمة أو شكرها .. بل تعمد التقشف وإظهار الفاقة وإخفاء يسر حاله ..

كان قد إختزل ثروته التى جمعها من كده طوال سنوات طوال فى صورة سبائك ذهبية وخبأها فى صندوق صغير .. ليحفظها عن أنظار ذويه ، وأودعه إحدى الغرف الخاصة به فى بيته ، حرص ألا يدنو أحد منها .. وألا يعلم بشأن ما فيها ، وكان يوصد تلك الغرفة ويكثر من أقفالها .. حتى زوجته ذاتها لم تكن تعلم بأمرها شيئ ، كل ما تعرفه أنه يخزن بها بعض البضائع ..

وإعتمد فرات أديما عديما بائسا ، فقد كان منزله قديما متهالكا .. ولا يلبس زوجته وأولاده إلا الأطمار ، الرميم والردئ .. والسقط البالى ، ولم يطعمهم إلا القليل الزهيد ، أضنى بيته وأشقاه ودائما ما كان يدعى الفاقة والعوذ .. حتى مستهم الضراء والبأساء ..

فى تلك الآونة ، كانت البلاد تعانى القحط الشديد والفقر المدقع .. فحكومتها كانت باغية مستبدة .. عمدت إلى الأهالى وفرضت عليهم ضرائب جبرية تعسفية باهظة ، أرهقتهم حتى أفقرتهم

وأعيتهم ، ومهما مر جيرانه بظروف جاسية أو خطوب أليمة .. لا يحن قلبه ولا يرفق

لم يفكر أبدا فى مساعدة أحدهم أو حتى إقراضه .. حتى لا يلتفت جيرانه لثراءه فيطمعون به ،كان شديد البخل والجشع أكولا للسحت ، حرص أن يكنز أمواله وثروته .. الدينار تلو الدينار والسبيكة تلو السبيكة ..

وما إنفك أن يمتلئ صندوقه الصغير بالسبائك الذهبية عن أخره .. وتكتمل فرحته .. حتى أبادت النيران المتأججة كل شيئ وأجهضت شقاء السنين ، وأصابه جوح الدهر ،لم يجد أثرا للصندوق .. توي وكأنه خُسف به .. إنشقت الأرض وإبتلعته النيران ..

طفق يحادث نفسه متقهرا ..

- **كيف لى أن أجمع ثروة مثلها مرة أخرى ؟ .. ومن أين آتى بالعمر لأعوض ما فقدته ؟ ..**

كادت الحسرة أن تستقطع جأشه وتستنزف دماؤه .. حتى إنبرى جسده وأصبح هزيلا ضامرا من شدة الحزن ، ومضت زوجته

هى الأخرى تندب حظها وسوء مقدورها .. حتى أنها شقت جيوبها وقضبت شعرها ..

وأهالت الثرى على رأسها ، ولكن ما الجدوى ؟ ، فأبناؤها يتضورون جوعا أطيطا .. ولم يعد لديهم إحتمال لخواء الجوف وجفاف الحشا ، علاوة على البكاء والنحيب .. الذى ماينفكا أن ينقطعا ويهدءا .. حتى تنشب نارهما من جديد .

....

بعد ردح من الزمن ..

خدد فرات الفقر وسوء الحال .. وعقدا لسانه عن الكلام وبات سادم نادم .. غريق الخصاصة والعوذ ، أما إمرأته فمازالت تعانى نكبتها ولا تدرى ما دهى زوجها .. ومتى سيفيق من شروده وهلوسته ، مضت تستجديه أن يتجاسر على مثاقيله ويعاود عمله مرة أخرى ..

فكفاهم شتاتا وتشردا ..

فى ذات الوقت كان كثيرا ما يجتمع الجيران يشاطرونهم مصيبتهم .. ولكن ليس منهم من يملك المساعدة .. فالحال مزرية ، والقحط يعم القرية كلها ..

ولما أحس فرات أن أولاده باتوا كالقشة فى مهب الريح .. تذروها وتعبث بها ، وأنهم يعتلون واحدا تلو الأخر بعدما نفذ ما يتقوتون به .. إستفاق من ترحه وشجونه وربط جأشه وبدأ يفكر فى مخرج من أزمته ، وجد أن لديه ما يميزه عن باقى جيرانه .. فهو تاجر ، إستطاع جمع ثروته البائدة وماله التليد فى أجل قصير ، ويستطيع إستعادتها فى ذات الوقت .. إذا كثف جهوده وعمل ليلا نهارا .. وقد كان ..

لجأ إلى أحد تجار المدينة الكبار .. وجلب منه بضاعة إلى أجل مسمى ، إمتلأ متجره القاطن بالمدينة خارج القرية " والذى لا يعلم أحدا بشأنه " ، وبدأ مرة أخرى .. يجمع الدينار إثر الدينار

....

عدة شهور من التجارة والربح تمكن خلالها أن يستأجر بيتا صغيرا .. بدلا من إقامته عند أحد الجيران ، وإتزنت معيشته وسد جوعة أولاده ..

نسى ما حل به وتمكن من سداد دينه .. وجلب بضاعة أخرى وملأ متجره من حر ماله ، وكان دوما ما يفكر .. كيف يعيد ثروته كسابق عهدها ؟ ..

إعتصر الحلول والأفكار من رأسه ، عمل ليل نهار دون كلل أو ملل ، فى بادئ الأمر كان يبيت بمتجره ودوام عملة يستمر أحيانا لأربع وعشرين ساعة ، دائما كان متجره مفتوح .. حتى يوم راحته ..

بينما كانت زوجته لا تراه لأسابيع طويلة .. يغيب عن بيتها ويعود كما ترك .. لا ملبس ولا طعام إلا من سرة دنانير ذهبية يدسها فى عباءته كالسر المكنون ، فلا يجلب إلا مؤنة اليوم .. ما لا يدنو من الكفاف ، فعاد الحال كما كان .. دون تغيير ، إلا أن أولاده لم يجزعوا .. فقد تعودوا من ذى قبل ..

....

وفى صبيحة يوم ما .. جاءه أحد الزبائن وطلب منه شراء كمية كبيرة من البضائع قد تفرغ مخزنه عن أخره .. فجدها فرصة كبيرة لاسيما أنه سيجنى من وراء تلك الصفقة أموالا طائلة ..

تمت الصفقة

وأضيف إلى ثروة فرات المتواضعة مبلغا هائلا جعلت عقله يتطاير ، وعادت الأحلام تداعبه وتسلبه لبه ،لم يهدر وقته فى

التفكير عديم الجدوى ، ملأ مخازنه مرة أخرى بكل صنوف البضائع .. وجلب ما ندر وجوده بسوق المدينة ..

راجت سلعه ، وحول مكاسبه إلى سبائك ذهبية ووضعها فى صندوق صغير .. ليست بنفس الكمية السابقة .. ولكنها تكفى كبداية ..

لكنه ظل حائرا .. أين يدس صندوق الذهب وكيف يؤمنه بطريقة لائقة حتى لا يصيب ثروته .. ما أصابها من قبل ..

حدث نفسه ..

- **لن أودع ثروتى ببيتى مرة أخرى .. لن أرتكب ذات الخطأ**

قرر أن يودعها فى سرداب سرى أسفل المخزن ..

وحثيثا .. حفر السرداب وجعل له أبوابا فولازية مصفحة وأقفالا يصعب فتحها ، تأكد أنه حتى لو نشبت النيران بالمتجر والمخزن وأبادته عن أخره .. فلا سبيل لها للإقتراب من صندوقه ، حتى اللصوص لن تجد مسلكا يصلها إليه ..

ظل متوجسا خائفا لعدة أسابيع بعدها يخشى أن يعلم اللصوص بأمر كنزه .. فوطن العزم أن يبقى بالمتجر ليلا و نهار ، إلى أن مر

الوقت وتسارعت الأيام .. ولم يلتفت إليه أحد أو يلحظ تدبيراته ، كانت الأمور بالسوق تسير على عادتها كل يوم .. دون جديد .. إطمأن تمام الإطمئنان أن كنزه فى مأمن من أى خطر محدق ، فوجد أن يبيت فى منزله مع زوجته وأولاده كل ليلة .. مادامت تدبيراته تسير على ما يرام وكيفما شاء ..

صفقة وراء صفقة ..

بدأت ثروته تتضاخم وتتضاخم إلى أن ضاق بها الصندوق الصغير .. فجلب لها صندوقا أكبر ..

ثم أخر أكبر ..

إلى أن أصبحا صندوقان هائلان .. وثلاثة .. وأربعة ..

وأوسع السرداب وجعل له نظاما تأمينيا أدق وأقوى ، لقد حقق اكثر مما كان يربو إليه مرات ومرات .. إستفحلت ثروته وتفاقمت وتزاحمت ، شعر أن نقمته ونكبته السالفة .. كانت مصيبة فقط فى أديمها أما جوهرها كان نعيما وخيرا فائضا .. حتى أنه تمنى لو أن النار أصابته وعاجلته قبل ذلك ..

فاق أكبر أعيان المدينة وأثراهم غنا وثراء .. حتى أنه الأن يمكنه شراء قريته بما تحوى من أراضين وبيوت ودواب ، حتى أهلها .. بماله يمكنه تركيعهم قسرا وأن يجلبهم رقيقا لديه ..

ورغم ما نابه من رزق وفير .. إلا أنه لم يتعظ ، ما زال يتقوت القديد .. ويحتسى شرابا أجاجا دون حبة سكر واحدة ، ما زادنه الثروة إلا بخلا وشحا على نحو بشع وفج ، ومازالت سقوف أحلامه وأماله فى الثراء .. تعلو وتطمح وترتقى ، وكأن حادثة الحريق أصابت رأسه بحق .. وأطاحت برشده ، خشى أن تنزله مرارة مثل تلك التى كانت فى الأيام البائدة .. إثر نكبته الأخيرة ،كان طموحا مدفوعا بخوف ومغلفا بالريبة والظنون .. مشوبا بإستئساد الأحداث الجلل والخطوب المباغتة ..

ومن ناحية أخرى كانت أسرته مازالت تعانى شحه وإطباقه عليهم .. فبالكاد يجدون الكفاف .. سداد من عوذ ، يعيشون حال قوم يقتاد ثريهم القديد ، وكثيرا ما إشتكت زوجته أمره إلى ذويه .. دون جدوى ، فهو كما هو لم يتغير ، إضمحلت المعيشة ووطئت الأوحال ، كان يسبها ويسيئ لها كلما حاولت أن تحادثه بهذا الشأن ..

حتى جيرانه الذين دعموه فى نكبته واقاموه حين اسقطته المصائب .. لم يسلموا من غلظته ونكرانه وجحوده وسوء منطقه .. وتعاليه عليهم وإزدراء حالهم وسخريته ، كان غروره بالنسبة لهم .. سلوكا غير مبرر ، فحاله مثل حالهم بل أسوا ، كما عهدوه دوما .. فقيرا معدما

إلى أن إعتزله الجميع .. إلا أن أسرته وحدها هى التى عانت هذه العزلة .. فباتت تشكو الوحدة والجفاء والهجران ، أما هو فإستمر على حاله .. كل يوم يخرج من القرية إلى متجره بالمدينة .. ولا أحد يعلم إلى أين يذهب ؟ ، أو من أين يجيئ ؟ ..

....

إلى أن جاء يوم ، وإنبسطت فى المدينة أخبار عصابة من اللصوص الخطرة تسطو على المتاجر الكبرى فتسلبها ما فيها ، وما إن أبصر أن كثير من التجار أصابتهم سرقات كبرى ، ونيف منهم قد خوت مخازنهم عن أخرها .. فقرر ألا يبرح المتجر بتاتا ، بل وإستأجر رجالا أقوياء أشداء لحمايته ، فكان كل ليلة يغلق المتجر من الداخل .. ويخلى سبيل الحراس بالخارج ولا يسمح لهم أبدا بالدخول .. حتى خلال فترة دوام النهار ، فى حقيقة الأمر كان

مريحا قلقا منهم ذاتهم ، إلى أن وجد أن غالب متاجر المدينة قد سلبت .. وبقى متجره فى أمان بسبب وجود الحراس أمامه دوما .. مما أدخل الطمأنينة شيئا ما إلى لبه وفؤاده ..

تلاحقت الأيام ، أصبحت متاجر المدينة مرتعا للصوص والسارقين .. وظلت تجارته محصنة بحراسه الذين بذل لهم العطاء .. وغمرهم بالأجور الباهظة ليضمن ولاءهم التام حتى لا يبرمون عقدا ، أو يعقدون إتفاقا مع اللصوص ..

فيتحالفون ضده فينهبونه ويسلبونه نعمته ، وليأمن أجيج أعينهم اللامة وطمع نفوسهم ..

تمت راحته إليهم وطمأنينته حيالهم .. وإزدادت ثقته بهم فإستأمنهم متجره بما يحوى ، كان كل حارس ديدبان منهم بالنسبة له .. أغلى من سبيكة ذهب لا يتوجب التفريط فيها ، فمهما دفع إليهم فالمهمة المنوطة إليهم ..

أثمن وأعظم وأجل .. حتى أنه كثيرا ما كان يغلق متجره .. ويودعه حراسه الأوفياء ، ويذهب ليجلب الأموال خاصته من التجار المدانين .. بثمن بضاعة الآجل ..

وفى إحدى هذه المرات ..

وأثناء وجوده بمدينة أخرى لمهمة ما .. كان عساكر وعسس الوالى يمرون بالسوق محدثين جلبة وهياج شديد

حيث أن حكومة المدينة لما إرتأت أن بعض التجار قد تباطئوا عن دفع الضرائب وبعضهم تغافل عنها وأسقطها .. أن تقوم بجمعها بقوة السوط والسيف والسجن .. بأمر مشدد من الحاكم .. مما أثار سخط التجار وغضبهم ..

ورغم ذلك لم يحفل العسس بثورتهم ولغطهم .. بل قبضوا على الكثيرين منهم .. لعدم وجود ما يدفعوه ، فقد قضى اللصوص على جل ثرواتهم ، وكثيرا من المتاجر تبر العساكر بضاعتها .. وبعثروها وبعزقوها .. بفعل سواعدهم ورماحهم ومطاياهم ، فدهست وسحقت تحت أرجل أجيادهم ..حتى تلف معظمها ، تمادوا فى الأمر دون إكتراث ..

وعندما مر زبانية الوالى أمام متجر فرات رأوا الحراس منتصبين يوصدون الطريق أمامهم .. مما أثار غضبهم ، فدفع بعضا منهم بدروعهم الحراس أرضا ، وحاولوا تحطيم الباب الكبير والدخول كما فعلوا مع كل المتاجر المغلقة عمدا .. فإعترضهم الحراس بعنف ودار نزاع وشجار عنيف ، حتى أن أحد العساكر

أصيب بجرح بصدره .. مما هيجهم واثار سخطهم وحنقهم .. وجعلهم يستشيطون ، فأبرحوا الحراس ضربا وطعنا .. حتى أسقطوهم ما بين جريح وقتيل وقبض على الباقى منهم ..

كسر العساكر باب المتجر وطرحوا كل البضاعة أرضا ، وظلوا يبحثرونها ويبيدونها بكافة الطرق .. خاصة عندما نفق زميلهم إثر جرحه الغائر بصدره ، وبالنهاية أضرموا النار بها .. فنشبت وتبر كل شيئ ، ولم ينتبه العسس لوجود السرداب وما دس فيه

أما عن فرات ، فبمجرد دخوله المدينة وجد العساكر بإنتظاره فقبض عليه ..

وعقدت له ولحراسه محاكمة سريعة دءوبة ، إذ إعترف أحد الحراس بأنه مأمور بأن يقتل كل من يعترض المتجر .. حتى ولو كان من عسس المدينة ..

إتهم فرات من القاضى بإعتراض العسس .. وبالتحريض والمشاركة فى قتل أحد العساكر أثناء أداء مهامه ..

حكم عليه إثر هذه الإعترافات والإتهامات .. بقضاء عشرين عاما بالسجن المشدد ، وألقى فى غياهب السجون .. يمضغ الوقت والندم والأسى .. يشتكى حظه وينعى قدر الأيام الدول

، ليكمل الباقى من عمره ما بين العويل والنحيب .. كما أحيا أسرته بين حزن وبكاء وجوف خال فاغر ، وكما عاش جيرانه يحترقون بنار الحاجة والعوذ .. وجارهم ينعم بالكنوز ..

أما عن المتجر ..

فقد إستردته حكومة المدينة وإستأجرته إلى أحد التجار الأعاجم .. الذى بدوره عثر على السرداب السرى ووجد به ما وجد .. وعاد لبلاده بثروة طائلة .

" تمت "

السر المصون

بعد فترة إنقطاع دامت لأكثر من خمسة أعوام ..
عرض عليه إبن عمته أثناء زيارته له أن يصطحبه ليصلح بينه وبين أبيه .. فكفاهم بعدا وفرقة بعدما ضرب الدهر بينهم .. وتقاذفت بهم السرائر ، وحالت بينهما القطيعة

....

كان فرات قد برح بيت أبيه إثر شجار نشب بينه وبين أخيه الأصغر أثناء مسيرهما بالشارع ، وعندما إحتكما إلى أبيهما .. إنتصر والده لأخيه ، بل وأهان فرات أشد إهانة ، ومما أشعره بالصغر .. أن لطمه أبيه بعنف عند إعتراضه أمام الجيران وصبيان الشارع .. الذين ما إنفكوا أن ملأوا صالة المنزل إثر سماعم .. هوجة أبيه وعجيجه المدوى ..
تملكه إحساس بالهوان والألم الشديد .. أيضربه أباه وهو إبن الثلاثين ؟ ، بل ويشاهد الجيران حفلة سبابه وإهانته
عندما شعر فرات بإنعدام قيمته .. رد على أبيه سبابه ، فما كان من أبيه إلا أن صفعه على وجهه .. وطرده شر طرده ، وحرمه أن

يعيش فى كنفه مدى الحياة .. بل وألقي بملابسه فى عرض الشارع ..

فغادر فرات منزله ترحا لائذا .. يبحث عن مأوى ، هجر بلدته .. مستأجرا بيتا ببلدة مجاورة ..

ومرت السنوات سريعا وهو وحيدا شريدا .. بعيدا عن أحضان عائلته ، وإنقطع الأمل فى عودته لبيته .. إذ لم يتجاسر على خوفه ، كما تأفف أبيه .. ودرأه كبره وكبرياؤه أن يصالح فلذة كبده .. فثكل ولده ..

إلى أن زاره إبن عمته ..

وعرض عليه أن يتصالح مع أبيه .. ليعطيه بصيص ضوء يفتر حدة الفراق الذى دام لسنوات ، بدا فرات مستبشرا برأيه وأيده أشد تأييد .. إذ لقى أخيرا من يدعمه ..

فمذ أن حدثت تلك المشكلة .. لم يتدخل أحد من ذويه مما آلمه جدا .. وإعتصر قلبه .. فظل كل منهم على موقفه ..

....

وفى ظهيرة ذاك اليوم ، وطنا العزم وطويا المسير إلى بيت أبيه .. الحاج محمد .. الذى ما إن لاقى ولده ماثلا امام ناظريه حتى أفرد

له ذراعيه .. فتعانقا بحفاوة وحنين .. وكأن شيئا لم يحدث ، هكذا بكل سهولة ويسر ، مما جعل فرات يبدى ندامته .. فلو يعلم أن الأمر سيسير على هذه الشاكلة .. ما إنتظر كل تلك الأعوام يتجرع مرارة البعد عن بيته وإخوته ..

كان أبيه يتوق شوقا إليه .. يشاطره الإلتياع واللهفة ، وعقد أزمة نفسه أن يعوضه ما لاقى من غربة وشتات طوال خمس سنوات خلت .. لا مناص أنها مرت عليه دهورا مديدة جاسية ..

بات فرات ليلته الأولى فى معية أبيه .. ليله محمومة بنفحات القرب .. ومحفوفة بالألفة والمودة ..

ومع بشائر الصباح ، إصطحبه والده إلى متجر صغير بجوار البيت ،لم يكن موجودا من ذى قبل ، ولم يعرف فرات الداعى من تلك الروحة .. لكنه أذعن لإرادة أبيه فى أريحية وحبية ..

ما إن وصلا إلى باب المتجر ..

حتى مثل أمامهما رجلا فى الخمسينات من عمره .. بدى أنه مالكه ورفيق أبيه ، حدثه الحاج محمد مبشرا ..

- **سلام الله عليك .. لدى مفاجأة وبشارة لطالما حدثتك عنها**

نظر صاحب المتجر وكان يدعى " ناجى " .. مهمهما بتساءل ..

- **فرات ؟! ..**
- **أجل .. هذا فرات.. باكورة أبنائى ، فما رأيك إذن فى مفاجأتى ؟ ..**

تقدم ناجى فاردا ذراعيه بحميمية وحبية .. وإحتضنه بشدة وكأن بينهما عشرة قديمة ..

- **أهلا .. أهلا يا فرات .. تعال وإجلس هنا .. عندى لك حديث طويل ..**

ثم قال مداعبا ..

- **أما أنت يا حاج محمد .. فلا حاجة لنا بك !..**

ضحك الحاج محمد .. قائلا ..

- **لا سامحك الله .. أبعد كل تلك السنين من الجفاء والهجران .. تريد أن تحول بينى وبينه ..**

أجلس ناجى الحاج محمد مسترسلا ..

- **حاشا لله .. لا جعلنى الله حائلا بينك وبين عزيز قلبك .. فقط كنت أناوش مهجتك .. محض هراء أنا أتحبب إليه ، فكم تقت الى لقائه من عشرات المرات التى حدثتنى فيها عنه ..**

ووجه حديثه الطلى إلى فرات محتفيا به ..

- **ما هى أخبارك يا بطل .. شوقتنى لرؤيتك**

وظلا يتجاذبا أطراف الحديث ما بين هزل وجد وضحك .. إلا أنه رغم حديثهما الحفى الطويل لم يعن الرجل لفرات شيئا ، كان فقط يتركع لرغبة أبيه .. إحتسب لقاءه لا يعدو سوى لقاءا عابرا .. وكأن القطيعة وجفاء البين قد أوصدا قلبه الصدئ .. وأضاع مفاتيحه ..

أما أبيه فقد ظن أنهما تصاحبا وتكونت بينهما علاقة طيبة ، كان الحاج محمد كلما إرتأى أن الملل والضجر قد إكتنفا إبنه إصطحبه إلى متجر ناجى ، وما إنفكا أن يودعانه حتى تتكرر الزيارة مرة أخرى .. وأخرى ، إلى أن إعتاد فرات نفسه مجالسة ناجى وإستراح لرفقته ..

فداوم الذهاب إليه والتسامر معه ..

كان يحادثه فى أمور الدنيا ويتسلى معه ويضاحكه ، وما تلبث قصة البعد أن تنتهى حتى تطفو على أديم الحديث تارة أخرى ..

كان ناجى دائم النصح .. يوصيه بأبيه ، ويذكره بحديث النبى بأن من رغب عن أبيه فقد كفر ، كل مرة لابد وأن يصبح أبيه هو حديث اللقاء ..

إلى أن جاءت مرة ..

وأطلق فرات بقيلة باغتت ناجى وأثارت وجده ، عندما قال ..

- **ولكن أخبرنى أنت عن نفسك ؟ ، فمذ عرفتك وأنا لا أعلم عنك شيئا .. فأنا إبن تلك البلدة ولم أرك من قبل ، من أين أنت أتن ؟ ، وأما لك من عصبة وآل ؟ ..**

إرتاع ناجى إثر هذه التساؤلات .. وأصابه جزع شديد ، إذ أدركته دون إستهلال أو مقدمات .. رغم توقعه لها يوما ما ، بل والأكثر من ذلك أن بدا عليه التلعثم والتعتعة .. ورغبة فى إنهاء اللقاء ..

لم يثقل فرات عليه أو يلح بالسؤال ويكرره .. بل غادره مباشرة ، إلا أن الدهشة والحيرة أطبقا عليه ..

- **لماذا إرتبك هكذا ؟ ، ولماذا ضجر وتأفف حينما سألته ؟ ، من يكون هذا الرجل ؟ ..**

زادت شكوكه وحاصرته وإتسعت دائرتها ، وأخضعته طبيعته الإستقصائية وجعلته يقرر أن يعرف الحقيقة .. ولكن دونما أن يدنو منه أو يسأله مرة أخرى .. إلى أن لقى أبيه .. مساء ذات اليوم ، فسأله مباشرة .. ودون أية ديباجات ..

- **إلى أى عائلة ينتمى عم ناجى ؟**

أجابه والده .. فقد كان هو الأخر يتوقع إستفهام إبنه ..

- **إنه ليس من بلدتنا .. من الواضح أنه من صعيد مصر ، قدم إلينا ذات يوم وكانت حاله مزرية للغاية .. لا نقود ولا طعام ولا مسكن .. بحق كان بائسا جدا ، فإستاجرت له هذا المتجر ليعيش من ريعه .. وليبيت فيه إلى أن يفك الله كربته ، وهكذا عاش بيننا ..**
- **ألم تسأله عن أمره ؟ ..**
- **لم يجب بشيئ واضح .. بل أثر الصمت ، كل ما علمته منه أن لا أسرة له ولا عائلة**
- **وهل أقنعتك إجابته ؟ ..**

- **بالطبع لا .. ولكن ما أهمنى هو حسن خلقه .. وطيب عشرته ..**

سكت الأب لبرهه ، ثم إستطرد ..

- **يبدو أن وراءه ثمة ثأر أو ما ضارع ذلك .. فى كل الأحوال لم أكترث ، الرجل بيننا منذ ما يفوق الثلاث سنوات .. ولم نتأذى من جيرته ، ولم يتجاوز مع أحدهم .. أو يتخطى حدوده .. كما أنه قلما يبرح المتجر .. فلا تأبه .. إنه رجل طيب وصالح ..**

أصاب فؤاد فرات الريبة والظنون ، لم يقتنع بتعللات والده الواهية وتذرعه بالحجج .. فما أدراه بالضبط ماذا وراءه .. وأى مصيبة تنتظره ..

- **ما دام الرجل خالى الوفاض وصفر اليدين .. ما الذى يقلقه عندما يُسأل عن أهله ؟ ، وماذا يضيمه إذا تكشفت حقيقته ؟ ، ولماذا يتحاشى الحديث .. وينهى اللقاء نافرا ضجرا ؟ ..**

....

مرت الأيام .. ولا إجابة شافية لأسئلته ، أو قل لا سبيل لها ، نسى الموضوع .. أو بمعنى أدق تناسى الأمر ، وعادت لقاءاتهم من جديد .. وكأنهما عقدا إتفاقا بألا يسأل فرات لان ناجى لن يجيب ..

إلى أن ذابت الهواجس ودارت فى ساقية الأحداث .. وضمرت الشكوك وإستراح جأش فرات وآثر الصمت ، ولم يكترث .. من يكن هذا الرجل ؟ ، فكفاه دماسة خلقه وحسن معاملته وطيب منطقه .. كما قال أبيه ، أصبح صديقه الصدوق فعلا .. فحائل الإقتراب تلاشى وتبخر ، أصبح المتجر ملاذ فرات.. وناجى أنيس جلساته .. ولكن دونما الإقتراب من خَبَرِه ..

....

وفى ذات مرة ..

كان ناجى يريد أن يجلب بضاعة من أحد المتاجر الكبرى بسوق البلدة .. وإعترته الحيرة والحياء أن يخبر فرات أن عليه أن يغلق المتجر إذ أن وراءه مهام فى السوق لينجزها ، أو أن يدعوه ليرافقه ريثما يقضى مهامه ..

فعَرَض عليه فرات أن يبقى بالمتجر ويتابع البيع والشراء ، إستحسن ناجى الفكرة .. فخلى سبيله فغادر ليتبضع ، فى ذاك الوقت .. نظر فرات إلى وضع المتجر من الداخل .. فأبصر العبث يرتع بكل مكان وكأن رياح هاجت وماجت فجعلت عليها سافلها ، فأثر أن يرتب البضاعة ويضع كل صنف فى موضعه المفترض .. ليشغل وقته إلى أن ينتهى ناجى من مهامه ، لعله يبذل له صنيعا .. إستشعر أنه سيكون بمثابة مفاجأة سارة تسكن قلب صديقه المهجور بالفرح والأريحية ..

راح ينظم جانبا تلو الأخر ، تلك أرفف الحلوى .. وهذه مدخنات .. وهذه الزيوت والمعلبات ... الخ ، إلى أن قطن كل صنف فى موضعه ، بدا وكأنه متجرا جديدا .. كان فرات مبتهجا بما فعل وصب لرؤية أول طلة وإنطباع لصديقه عندما يبصر ما أل إليه الحال ..

كان ما بقى إلا ساحة المكتب الصغير المتوطن وسط الفراغ الداخلى .. وكانت تعج برزم الورق الذى يغلف به الحلوى والجبن السائب وما شابه ، طفق يرتبها وينظمها .. أزاح كل شيئ عن موضعه ، وأثناء نقله للرزم المتكتلة .. هوت بعض

الأوراق منطرحة على الأرض ، لم يأبه لأمرها كثيرا .. إلى أن لمح على بعض صفحاتها أختاما حكومية ..

شعر أنها أوراقا ذات أهمية فرفعها يستطلع ماهيتها .. ويعيدها إلى أماكنها ، مضى يقلب ورقة إثر الأخرى ..

كانت عقود ملكية لعقارات وأراضى لشخص يدعى عبدالله سلام !! ..

لم يبدو الأسم غريبا " فقد سمعه سابقا" ،لم يأبه .. وإستمر فى التنقيب إلى أن إنفلت شيئ ما .. واقعا على الأرض ، أوطأ رأسه ناظرا .. كانت بطاقة تحقيق شخصية .. طفق يفحصها وكانت الصاعقة ؟! ، البطاقة تحمل صورة ناجى .. ولكن يعلوها إسم أخر ، كان نفس الإسم المرفق بالعقود .. " عبد الله سلام " ؟؟!

تاه لدقائق قليلة مبهوتا فاغرا فاه .. إلى أن إستفاق لحاله وتدارك الحدث ، لم يكن يريد أن يتجلى الأمر أو ينكشف لأحدا .. ريثما يعرف الحقيقة كاملة ، دس الأوراق خلسة فى ملابسه .. وهم من فوره يستكشف الطريق يمنة ويسارا ليستطلع ما إن رآه أحدهم ، إنطرح متثاقلا على أحد الكراسى زاهلا .. شارد العقل ومشتت الأفكار ..

عاد ناجى ، وما لبث أن رأى كيف تحول المتجر حتى إغتبط وإنبسطت أساريره .. وعانق فرات لما أنجزه ..

حمد له صنيعه ومشاطرته ، أما فرات فبدا متعثرا قلقا .. فإستأذن لتوه خارجا دون أن ينبس بكلمة واحدة ..

ظن صاحبه أنه متعبا ومرهقا ، دعاه ليستريح فلم يجب ، بالنهاية ودعه قائلا ..

- **سأنتظرك فى المساء .. لا تتأخر**

رد عليه فرات وهو يسير مرتبكا .. لا ينظر أثره .. يتخبط فى سيره وكأنه فك من عقال ..

- **إن شاء اللـ ....**

وكأنما جهل إثر صدمته حسن التصرف .. وموطئ الحديث !! ..

ما إن ولج فرات بيته .. حتى لحظ أبأه وإخوته ما إعتراه من إرتباك وتعثر ، لكنه تحجج بصداع شديد يفتك برأسه ..

دخل غرفته ساهما ، لحق به أخيه الأصغر .. وأعطاه قرصا مسكنا ، وحدثه خارجا ..

- **سأدعك تستريح .. فلتنم الأن ..**

وما إن خرج أخيه حتى أوصد الباب وراءه من داخل الغرفة وأحكمه بالمزلاج ، وإنفك إلى مرقده وأفرد الأوراق كلها أمامه .. ومضى يتأملها مليا فى تأن وتفحص شديد .. والقلق يصارعه وينزع صوابه ..

- **ما بال هذا الرجل ؟ .. من يكون ؟ .. وماذا يبطن وراءه ؟**

تشتت أفكاره وتناثرت صوب كل إتجاه ، كادت الحيرة أن تذهب عقله ، قلب الأوراق ورقة ورقة .. كانت تُبْدِى أن لهذا الرجل أموالا طائلة .. وأملاكا لا حصر لها مابين عقارات وأراض ومنشأت صناعية ، وثمة إخطارات من عدة بنوك أجنبية ..

- **ترى من عساه يكون ؟ .. لماذا يخلى سبيل ثروة باهظة كتلك ؟ ويرتضى العيش فى تلك الحال المتواضعة المزرية .. ولا ثمة مقارنة ..**

لديه أكثر من مسكن فاخر وعمائر بأرقى الأماكن وأراض لا حصر لها .. وبالنهاية يسكن متجر ببلدة خارج الدنيا لا تتعدى مساحته الأربعين مترا مربعا .. بلا أسرة ولا وسائد ، لامناص أنه هارب من جرم ما ..

قد يكون قاتلا وهارب من حكم بالإعدام ..

كلما جالت هذه الفكرة بخاطره .. أصابه فزع شديد ، فقد تورط أبيه فى حمايته وإيواءه ..

- **ربما كان شيئا أخر .. مختلسا أو رئيسا لعصابة ، أى نوع من الجرائم ترى قد إرتكب هذا الرجل ؟ ، وأى من الذنوب قد إقترف ليهرب بتلك الطريقة وكأنه فر من عقال ..**

أما له من أسرة وأولاد ؟!

نظر إلى البطاقة مرة أخرى .. بدى أن الرجل متزوجا فثمة عبارة " متزوج " .. وهذا إسم زوجته ..

- **أين عائلته إذن ؟ ..**

بالإسكندرية ..

كان كلما تفحص وأمعن النظر بالأوراق .. خرج بمعلومة .. إنه رجل أعمال ..

- **ترى أى نوع من الأعمال تلك ؟ ..**

بعد تفكير عميق وجهاد للنفس فى ليلة قضاها حائرا مشتتا بين وشائج الأسئلة والإستفهامات .. قرر فرات أخيرا أن يذهب إلى حيث تقيم أسرته ..

بالإسكندرية ..

قرر تقصى الحقيقة ومعرفة كنهها ، ومعرفة علة هروبه إلى حيث لا يعرفه أحد ، وكان قد حصل من تلك الأوراق على أكثر من عنوان ، وطن العزم على المرور عليها واحدا تلو الأخر .. ليعرف ماهيته ..

....

قضى ليلته حائرا إلى أن إنقشعت ظلمتها ..

وفى الغداة ، أدركته تباشير الصباح .. وكان قد أب للسفر .. يجلى شفافيات المجهول يتكهن بالغيب ، إستقل القطار إلى أقرب مكان .. يجد به سيارة تحمله إلى الإسكندرية ..

وفى غضون ساعات قليلة ..

كان قد خلص إلى وجهته المبتغاه ، ظل طوافا بين الأماكن والعناوين .. حتى إنتهى به المطاف والمحط إلى فيلا على الطريق السريع ، كانت بناية مبهرة .. فسيحة فيحاء .. بحق ما أشبهها بالقصور الهندية ، تحوطها الحدائق الغناء وتطوقها الأشجار والنخيل ، وسياج متوسط الإرتفاع مثيل أسوار القلاع .. وثمة بوابة إلكترونية عريضة ، وبجوارها غرفة للأمن ..

لمح رجل فى طور الشباب يطل من نافذتها ، قرر الذهاب إليه ..
ولكن ماذا سيقول ؟ .. تردد كثيرا ..
وبالنهاية إستجمع قواه وشحذ سليقته .. وإعتصر نتاج قريحته ..
ونظم حديثا لا يتورط بسببه ،كما لا يثير الشكوك حوله ..
قرر فى قرارة نفسه أنه ما إن يعلم أن إختفاء الرجل سببه جريمة ما إرتكبها .. فإنه سوف يعود أدراجه من حيث أتى .. دون أن يسترسل حتى لا يفتضح أمره .
دنا من نافذة غرفة الأمن ، وحدث الشاب ..

- **السلام عليكم ..**
  أهذه فيلا الأستاذ عبدالله سلام ؟..

أجابه الشاب ..

- **لا .. هذه الفيلا الخاصة بإبنه .. أحمد بيه سلام**

أردف فرات ..

- **ولكنى أريد الأستاذ عبد الله سلام ، ألا تعرف أين أجده ؟ .. أريده فى عمل ..**

أطل الشاب برأسه من النافذة ..

فلا ثمة سيارة .. رأى شخصا يتقدم مترجلا ، ففطن فرات بحدسه اليقظ لمبتغى تبصره ، نظر حوله فلمح سياره سوداء عند حافة الطريق .. فكان حاضر البديهة والجواب ، قال له ..

- **معذرة إنى فى عجالة .. تركت " محسن بيه " هناك بالسيارة ، وهو من يريد الأستاذ عبد الله**
- **ومن أنت إذن ؟**
- **أنا سائقه الخاص ..**

قال الحارس متهكما ..

- **وألا يعلم " محسن بيه " خاصتك أن عبدالله بيه قد توفته المنية منذ ثلاث سنوات**

قال فرات متيقنا ..

- **أهذا ما فى الأمر ؟ ..**

رد الحارس متعجبا ..

- **ماذا ؟ ..**
- **أقصد أنه بالتأكيد لا يعلم .. فقد قدم إلى مصر منذ أسبوع بعد سفرة طويلة إلى ألمانيا ، أقام هناك لعدة أعوام ..**

وفى هذه الأثناء ..

كانت سيارة تتقدم رويدا عن كثب إلى أن أصبحت أمام البوابة مباشرة ، فتح لها الحارس .. وهرع إلى نافذتها محدثا الشخص الراكب بالأريكة الخلفية ..

- **" أحمد بيه " ..**

هذا الرجل يسأل عن " عبدالله بيه " .. رحمه الله ..

نظر أحمد _ " راكب السياة " _ إلى فرات مهتما ، ثم نزل متآزفا ، ودون أى حديث أو إستفهام .. دعا فرات للدخول معه مباشرة دون تحية حتى ..

- **تفضل ..**

توجس فرات خيفة ولكنه لم يجد بدا من الدخول ، تجاسر وسار معه خلال الممر الواسع المؤدى إلى مدخل الفيلا ..

دخلا ومضيا خلال البهو العظيم إلى أن إنتهيا إلى غرفة مكتب كبيرة .. تتصدرها صوره ضخمة لـ " ناجى " أو " عبدالله سلام " .. منشبة على الحائط ..

أجلسه أحمد وضايفه بفنجان قهوة ، وما إن أصبحا فرادى .. حتى إستهل أحمد الحديث قائلا ..

- **فى أى أمر تريد أبى ؟ ..**

تردد فرات فى نفسه قليلا ، متساءلا .. " أيقول الحقيقة ؟ ، أم يكمل كذبته ؟ .. "

ولكنه إرتأى أن يختلق قصة أخرى مناسبة ، أخرج المستندات من ملف ورقى صغير ..

- **لا لم أكن أريده ، ولكن الأمر أنى أعمل سائقا لسيارة أجرة .. وركب معى شخص هو صاحب هذه الأوراق .. وقد نسيها فى سيارتى .. لقد رأيته بأم عينى ، أكاد أراه كل أسبوع مرة على الأقل .. يركب معى ، بينما الحارث أخبرنى أنه توفى منذ ثلاث سنوات !! ..**

أمسك أحمد الأوراق فى لهفة .. شديد الإكتراث ، ويبدو أنه كان قد قُتل بحثا عن تلك الأوراق الهامة ، قال متحمسا شغوفا ..

- **أين رأيته ؟ ..**
- **قلت لك أنى رأيته فى سيارتى ، كان يستقلها متجها إلى مكان ما ..**
- **ليس هذا ما أقصده ، أقصد من أين يستقل السيارة ، وإلى أين ؟ ..**
- **فى حقيقة الأمر لا أتذكر ، ولكنى دوما ما أراه**

- **أليست له مواعيدا محددة ؟ ، بداية الأسبوع مثلا أو أخره**
- **وهذه أيضا لا أتذكرها ، لأنى أراه بصورة عشوائية وفى مواعيد متقطعة .. بمحض الصدفة _ ولكن يمكنك مساعدتى فى إيجاده .. وسأبذل لك مكافئة كبيرة ..**

سكت فرات لبرهة ثم قال ..

- **لا أريد مكافئة ، وسأدلك عليه .. ولكنى أريد أن أتبين الحقيقة ..**
- **أى حقيقة تلك التى تريد أن تتبينها ؟ ..**
- **حقيقة والدك ، لماذا تدعون أنه توفى ؟ ..**
- **وما يخصك أنت فى ذلك ..**

إنتفض فرات نافرا ..

- **وهو كذلك ، إعتبرنى لم آتى ولم أخبرك بشيئ ولن أدلك عليه ..**
- **إجلس .. ما بالك ؟ ، لا أجد سببا لإهتمامك هذا**
- **وماذا يفيدنى أن أدلك عليه ؟ ، فلربما كان وراء غيابه سر ما .. مصيبة أو ماشابه .. فأتورط وأنا فى غِناً عن ذلك ، أخبرنى خبره ولى الخيار .. أأساعدك .. أم لا ..**

- ومن يضمن لى صدق حديثك ؟! ..
- أنا فى رحابكم .. فلتفعل بى ما شئت ..
- تمام ..

وأطرق أحمد قليلا ، أشعل سيجارا ونفث دخانه متنهدا بعمق ..

- فى الحقيقة إن أبى قد إختفى فجأة منذ ثلاث سنوات تقريبا فى ظروف غامضة .. وقد ألفيت سيارته غارقة فى إحدى الترع .. ولكنى لم أجد له جثة ، ولم أدع سبيلا إلا وتحريت عنه خلاله ولكن دون جدوى ، وإنى لشديد التأكد بأنه حى يرزق .. كل الشواهد تقول ذلك ، ولكن صعب علينا إعلان خبر إختفاءه .. ولذلك إبتدعنا قصة موته حفظا لماء الوجه ، وحفاظا على أعماله التى حتما ستتأثر بخبر إختفاءه .. فأبى من كبار رجال الأعمال .. ويرأس مؤسسة كبرى ..

وأنت أول من يفد إلينا بدليل حقيقى حول بقاءه حيا .. تلك الأوراق ، ولكن إصدقنى الحديث .. أرأيته حقا ؟ ..

كان فرات شاردا فى خضم هذه الكلمات .. يقارن بين " ناجى " صاحب المتجر الصغير .. و "عبد الله بيه " رجل الأعمال الأشهر .. صاحب المصانع والعقارات ..

أفاقه السؤال من شروده ، فأجاب ..

- **أجل رأيته ..**

كرر أحمد سؤاله ..

- **أرأيته فعلا ؟ ..**
- **نعم يا " أحمد بيه "**

رأيته عدة مرات كما قلت لك سابقا .. وسأدلك عليه حينما أراه ، ولكن أريد علامة أو أمارة أو شيئ من هذا القبيل ، فلعله فاقدا للذاكرة أو ما شابه ..

- **أى أمارة تلك ؟..**
- **أريد صورة تجمعه وأسرته ، بالإضافة إلى نسخة من بطاقته الشخصية .. لتكون لى الحجة إذا إعترضنى أحد**

رأى أحمد أن هذا رأيا منطقيا ..

- **لدى صورة ليست بالقديمة جمعتنا بإحدى العطلات .. وملامحه واضحة بها .. كما أنها صورة تضم كل أفراد**

أسرتنا لا ينقصنا أحد ، كان أبى دائما ما يحتفظ بها على مكتبه الخاص ..

أعطاه الصورة ، ومناه بمكافئة كبرى إذا ما ساعده للوصول إلى أبيه ، كما أوفده رقم هاتفه الخاص .. ثم حياه وودعه ..

أما فرات فكانت له مآرب أخرى من تلك الصورة ..

....

فى ذاك اليوم ..

كان ناجى قد إكتشف إختفاء أوراقه فكاد أن يُجَن .. بحث عنها كثيرا فلم يجدها ، فتذكر أن فرات هو من عبث بحاجياته مؤخرا سأل عنه ، فقيل له أنه قد سافر وسيعود مساء اليوم ، ولكنه ظل يسأل عنه مرارا .. حتى شعر الحاج محمد بالقلق إثر ذلك ..

سأله عن الأمر .. أجابه بأنه فقط يفتقده ، فما إجترأ ناجى أن يسأل عنه ثانيا ، ظل مراقبا للبيت من بعيد وما إن وصل فرات إلى بيته ظهيرة هذا اليوم .. حتى أخبره أبيه عن إفتقاد ناجى له ، فأجابه بأنه سيلقاه مساءا

.. فهو مرهق جدا الأن ..

ظل ناجى منتظرا على أحر من الجمر .. لا يُذكر أنه باع شيئا ذلك اليوم ، بل وإشتكى زبائنه أيضا ضيق خلقه وسوء منطقه ، تهاتفوا لا مناص بأن حدثا جلل قد أصابه ، إستمر يراقب بوابة البيت طوال اليوم .. وكأنه يحرسها ، نشبت عيناه بالوالجين والمغادرين .. ينتظر خبرا ..

إلى أن إنفتحت البوابة وأبصر فرات قادما إليه من بعيد ، حاول أن يتمالك نفسه ويسترد جأشه .. حتى لا يلحظ شيئا ما ..

لاقاه فرات هو الأخر شاردا .. لكنه حاد النظرات ، بين الحين والأخر يرمقه بنظراته جاسية .. كالسهام المارقة النافذة ، إستهل ناجى الحديث ..

- **أين كنت ؟ .. لقد إفتقدتك ..**
- **لا .. لا تأبه .. وأنا أيضا أفتقدك ..**
- **ولكن ماذا بك ؟ .. أراك زاهلا ..**
- **قل لى أنت .. أليس عندك ما تقوله لى ؟ ..**
- **أنا ؟ .. وماذا تظن أنه عندى ؟ ، عن أى شيئ تسأل ؟ ..**

فأخرج فرات الصورة ، على حين غرة ، ونصبها أمام عيني ناجى

- **عن هذى ؟ ..**

صدم الرجل ، وكأنما صاعقة من السماء قد هوت عليه ، رقأ الدم فى عروقه من هول المفاجأة .. وقبض جأشه قبضة موجعة .. مؤلمة ..

تصبب العرق من وجهه إنصبابا كالثجيج وإستمر يحملق فى الصورة .. وكأن الله سلبه نور عينيه ، وعجاجا من الأسئلة هاج وماج برأسه .. وتلاطم كالأمواج .. ومن أين يأتى بالقلب الجسور ليجيب عنها ..

لقد دق ناقوس الخطر ووقعت النازلة الوشيكة ، كان يتوقع أن يكون فرات قد وجد الأوراق .. ولكنه لم يتوقع ما هو أكثر من ذلك ..

- **من أين أتى بتلك الصورة ؟ ..**

بدا فرات بالنسبة له كأوابد الوحش .. التى لا يأنسها بشر ، هذه الصورة التى طالما سرح فيها وحدثها ، كانت له معها ذكريات وحكايا وأقوال ، زمجرت رياح الذكرى فجأة .. ولم يحسب حسابا لهذه الفاجعة ..

جثمت الأوجاع وإحتكمت بجأشه .. وعاودته الأيام المنصرمة تتوحش وتستأسد ، تلك الأيام التى ما إنفك أن ينساها ويسقط من فيها .. حتى باغتته بهجوم أخر أعنف وأشرس ..

لقد إنتهت رحلة راحته ..

داهمه العسس ليلا .. عسس الألم وحراس المواجع ، ليته يبرح مكانه .. أو تنشق الأرض فتبتلعه ، لكن الله رد عليه منيته وإرادته أى مصيبة تلك التى حلت به !! ..

نظر إلى فرات مهتزا مترجرجا .. الأرض تميد بأثقالها من تحت قدميه ، ورأسا مخدورا يقوده إلى الهاوية .. وكأنما تجرع كأسين من الخمر ..

أطبق عينيه وذرف دموعا حارة ، ونطق أخيرا بصوت متهدج .. متهته ..

- **من أين أتيت بها ؟ ..**

أجابه فرات ..

- **أعطانى إياها " أحمد بيه " ، أحمد عبدالله سلام**

فعرف ناجى حينها أنه هو من دعس بأوراقه وسعى ورائها .. حتى عرف خبره ..

لم يكن يعرف بأى شيئ يجيب ، تلعثم لسانه .. وتعثرت الكلمات على عتباته ، لقد هيمنت الحقيقة وإفتضح خبر الماضى المثقل ، بُعِثَ من جديد .. بعدما أباده وكفنه وأواه الثرى ..

قال بصوت أجش متقطع ..

- **ذاك المكان ، عانيت فيه أشد المعاناة .. أضعت زهرة عمرى لأجلهم .. ولم أجد سوى سوءة أعمالهم ، ضحيت لهم فضحوا بى ..**

وذاك الذى أعطاك الصورة .. قاضانى بالحجر وفُضِحتُ جراء فعلته ..

أصغى فرات بشغف شديد ..

- **لقد حاربتنى أسرتى أشد محاربة ، وما إن تضاربت رغباتى ومشيئتهم .. إتهمونى بالخبال والعته والجنون ، دبروا لإيداعى مصحة داخلية للأمراض العقلية ..**

وريثما علمت بتدبيراتهم .. تركت لهم الدنيا وما فيها ، حتى إسمى إستغنيت عنه .

إندهش فرات..

- ولماذا لم تعش بأحد أملاكك الأخرى .. بعيدا عنهم ، لماذا خليت لهم سبيل كل شيئ ؟ ، ألا ترى أن ما فعلته لا يناسب ما فعلوه .. فلست مسلوب الإرادة ..

- ما عرفته يا ولدى .. غيض من فيض ..

فمذ أن تزوجت وأنا أعيش واقعا مُرْغَمٌ عليه ، بُلِيتُ بزوجة لم تفهمنى يوما .. ولم تشاركنى مسيرا ، وبُلِيت بعمل أبغضه ..

ورغم نجاحاتى المبهرة .. فإن حياتى كلها كانت سلسلة من الترهات ، حوصرت بحفنة من المرائين وأهل المصالح .. وحرمت أسباب الراحة ، كنت أرى خادمى .. فأتمنى لو كنت مكانه ، وحديثى مع " فراش " مكتبى يثيرنى ويؤسرنى ، وكثيرا ما تغالظت أسرتى معى جراء ذلك .. فأودعونى وحيدا .. ببيت أعول فيه ما يزيد عن الثلاثين فردا ، وحوصرت بأربعة جدران .. وفى معيتى أراضين يرتع فيها الخيل .. وينوء عن إجتيازها الأشداء .. فما رأيك إذن ؟ .. تلك كانت حياتى ماذا لو عشت مكانى ؟ أتروق لك تلك الحياه ؟ ..

تلعثم فرات ، وحار من أمره ماذا يقول ..

- **ولكنى مازلت أرى أنك لست مسلوب الإرادة ، لابد وأنـ ....**

وما إن لحظ أن عينا ناجى بدأت تترقرق ، بتر حديثه قائلا

- **هون عليك ..**

مرقت أمام عينيه مزيدا من الذكريات .. فإجهش بالبكاء وإستفاض بالدمع ..

- **نالتنى سهامهم ، لقد وأدوا ضحكتى .. فبت أتنفس حزنا ، يؤرقنى حديثهم وتوحشنى غلظتهم ..**

مرضت فى رحابهم .. نحل جسدى وضمر عودى .. ولم يحرك ذلك فيهم ساكنا ..

إغتر أبنائى بقوتهم وسطوتهم .. وعاملونى كَمَيت فَنَى وتحلل ، كانوا يحدثوننى بصوت معدنى بارد .. وكأنى ماض سحيق فات وإنقضى ، لم يؤثر فيهم قواى التى خارت .. والقهر الذى إكتنفنى وغطى ملامحى .. وإحساسى بالعدمية والمحو .. وشعورى بالظلمة والجدب ، أقفرت حياتى وخبا حماسى .. وذوت رغبتى

فى الحياة شيئا فشيئا .. أصبحت كعجوزا زاهلا ..ألم تسأل أبيك عن تلك الحال التى جئت بها .. إلى تلك البلدة ؟ ..

أجاب فرات ..

- **فى الحقيقة لا أعرف ماذا أقول ، ولكن ماذا بعد ؟ .. هل ستبقى على تلك الحال ؟ ، هم يبحثون عنك ..**

رد " ناجى " .. فى حدة مشفوعة بالرجاء والعشم

- **لا أرغب فى العودة .. راقت لى المعيشة معكم ، أنتم بحق أهلى وعصبتى ، لقد أسقطتهم من ذاكرتى .. فكأنى لم أرزق ولم أتزوج ولم أنجب ..**

فهلا صنعت لى معروفا لن أنساه لك طيلة ما عشت ، فلتحفظ لى سرى .. ولنبقى أصدقاء كسابق عهدنا ..

أجابه فرات فى حزم وجدية ودون تردد ..

- **فلتنس كل ماحدث .. وكأنه لم يكن ..**

ولتكن أنت السر المصون .. ولأكن أنا البئر المكنون .

" تمت "

إلى أسفل سافلين

- " اللهم إجعل فى قلبى نورا .. وفى لسانى نورا .. وفى سمعى نورا .. وفى بصرى نورا ..

ومن فوقى نورا .. ومن تحتى نورا .. وعن يمينى نورا ..
وعن شمالى نورا .. ومن أمامى نورا .. ومن خلفى نورا ..
وإجعل فى نفسى نورا .. وأعظم لى نورا .. وعظم لى نورا .. وإجعل لى نورا .. وإجعلنى نورا .. اللهم أعطنى نورا
وإجعل فى عصبى نورا .. وفى لحمى نورا .. وفى دمى نورا .. وفى شعرى نورا .. وفى بشرى نورا ..
اللهم إجعل لى نورا فى قبرى .. ونورا فى عظامى ..
وزدنى نورا .. وزدنى نورا .. وزدنى نورا ..
وهب لى نورا على نور " ..

تمتم فرات بهذه الدعوات المخضلة بالدمع .. بصوت أجش متهدج ، إغرورقت عيناه ينهنه كطفل يتيم ..

وتذكر كم من اللحظات الصعبة التى مر بها ، كم من المحن والأزمات ، وكلما حاول أن يتناسى .. تنبه لتلك المحنة .. الغارق

فيها الأن ، كم ألامته وأرقته .. وكادت أن تصل به إلى حد اليأس ، تستفز داخله أشباح الأيام الخوالى ..

إنفجر باكيا فى نشيج متصل ..

إسترجع أخر ليله .. ودع فيها أبيه ، أخر ليله له فى أحضانه وهو صغير .. قبيل أن تنتزعه بلاد الغربة بعنف دون فيئة ..

كانت أمه تشاركه البكاء .. وتشاطره الوجد على ما مضى من العمر ، ماجت أمواج الذكرى المنسية بعنف .. وإلتجأت إلى سنوات خلت ، وقتها كان يعيش فى كنف أبيه وأمه وفى رعايتهما ، إلى أن سافر أباه بأحد مشاريع الشركة التى يعمل بها إلى بلاد الشام المشتعلة حربا ودمارا ، وبالنهاية عاد قتيلا ..

وبدلا من أن يقطن بيته .. ويأنس بأحضان أهله .. زج به إلى ظلمة الأجداث ، هدم معه عماد البيت وإرتج لبنة لبنة .. وزمجرت الخطوب تترصد أمانه وإستقراره ، فمذ وقتها .. وهم يعيشوا فى عسر من الحال .. وكروب لا تنتهى ، وكل يوم يمر تموت أمه المكلومة ألما تتوق شوقا إلى رؤيا زوجها الفقيد ..

وذات الليلة ..

كانت دموعها تنساب على خديها كالثجيج .. وهو يقاسمها النحيب ،لم تكن تعلم أنه قد عقد العزم أن يفارقها هو الأخر .. صباح باكر ، فقد ضاقت به الدنيا وأغلقت فى وجهه كل أبواب الرزق ..

كان عليه أن يتخذ قرارا حاسما .. بعدما إستشعر أنه أصبح عالة وعبئا .. ونيرا على عاتقها وعاتق أخيه الأصغر

قضيا ليلة فراق مؤلمة ، لا يعلم الحبيب بفراق حبيبه .. وما دبره لصباح باكر ..

....

وقبيل شروق الشمس بساعة من اليوم التالى ..كان فرات يحمل شنطة صغيرة ويسير بين قضيبى القطار ، كلما سار خطوة تعثر فى الثانية .. فقد كان يحوم طوافا فى دنيا أخرى .. كان حائرا ومتألما ، يحدث نفسه شاردا ..

- **هل ستكفى المئة جنيه التى تركتها ؟ ..**

لماذا لم أترك أكثر من ذلك ؟ ..

وكلما تحامل على نفسه ..كَدّرها وأوجعها بهذه الأسئلة ، ثم عاود وواساها مرة أخرى ..

- وهل كان لدى ما يفيض لأتركه ؟ ، ما لدى بالكاد يكفى أعباء المسير وكلفته .. وعدة وريقات تسد الرمق لعدة أيام زهيدة إلى أن يرزقنى الله بعمل .. أقتاد منه ..

فى البداية لم يكن يعرف وجهته بالتحديد .. وإلى أى شطر سيأوى إستقل القطار المسافر إلى القاهرة ، وعلى غير عادته لم يتم سفرته إلى أخر محطة .. بل إستقر به المطاف عند إحدى القرى القريبة العاصمة ، لم تكن هدفا أو مأربا ..

وإنما حيث حطت قدماه وطن .. دون إرادة منه ..

وما إن وطأت قدماه القرية .. ظل يدور بشوارعها متحريا عن مسكن صغير .. غرفة أو شيئ من هذا القبيل ..

مكث طوال النهار .. طوافا .. يبحث عن ضالته .. وبعد عناء شديد غير مجد .. لم يجنى سوى تورم قدماه

أصابه شيئ من القنوط ، أو يكاد .. إلى أن إلتقفته أيدى شيخ .. متوسط العمر .. من أهالى القرية ، قبل بأن يسكنه فى بيته مع والديه .. وكانا عجوزين ضريرين ..

ريثما يدبر له مسكنا ..

وبعد رحلة بحث ليست بالطويلة .. لم يستطع الشيخ أن يؤمن له مسكنا مناسبا .. ولا حتى حظيرة دجاج .. فأهل القرى لا يقبلون .. عازبا وحيدا ، ونادرا ما يسكنون الغرباء ..

لم يبق فرات كثيرا فى مسكنه المؤقت ..

فقد أواه الشيخ فى غرفة صغيرة بالمسجد الذى يأم الناس فيه فى بلدة مجاورة ، وحتى حينه لم يطرأ له خاطرا أو هاجسا أن يسأله عن حاله ، " من أنت ؟ أومن أين أتيت .. وما هى قصتك ؟ " ، وما إلى ذلك ، أعانه فقط .. لسماحة وجهه .. ولطيب منطقه .. ولتوسمه الخير ..

وكانت للمعيشة داخل المسجد .. تجليات سريعا ما هيمنت على حياة فرات ، فقد أعفى لحيته .. وبدا أكثر إلتزاما من ذى قبل ..

زاهدا متع الدنيا الزائلة .. ولذاتها وحطامها ..

تعرف على عبادات لم يكن يدركها من ذى قبل ، واضب على عبادات الفروض والنوافل .. ولم يفارق المصحف يديه ، أصبح متباسطا .. مسترسلا مع الله ..

قياما وسجودا .. أذكارا ودعاء ، تمتمته تسبيح وتهليل .. وإفصاحه وعظ وعبر ..

كان دائما ما يتأمل ويتصفح وجوه الناس .. ويقرأ فيها الكثير من المعانى والعظات .. إلا أن وجوه اليوم هى ذاتها وجوه الأمس .. لا فارق ولا تغيير ..

عاش بالمسجد متصوفا .. ونفض عن روحه صدأ الحياة .. وعفنها .. وفجاجتها المادية ..

ولأنه عاشق للرسم .. قضى أيامه على وتيرته المعتادة ..

بين أقلام التحبير ورسوم سيريالية روحانية ..

تعبرعن روح المكان وتجلياته ..

توطدت علاقاته مع الأهالى .. ساكنى البيوت وأصحاب الحوانيت حول ساحة المسجد ، هذا حمد صاحب المقهى .. وهذا حسين صاحب الورشة .. وتلك سيدة عجوز .. لا يعلم إسمها .. ولكن يلتقيها كل يوم عند بائعة " الفول والطعمية " ،كانت تذكره بأمه فقد كانت شديدة الشبه بها

وتلك صفيه أرملة رغم صغر سنها .. صاحبة مصنع لـ "بومبيه الثلاجات" .. كانت شديدة الثراء ، تعرف عليها من شدة عطفه على إبنتيها التوأم .. ذوات الخمسة أعوام ،كثيرا ما إبتاع لهما الحلوى .. عندما تصحبهما صفية " للسوبر ماركت " ..

تعرف على الكثيرين من قاطنى هذا الحى .. كانو يدعونه بـ " الشيخ فرات " ، إلا أن الكثير بحياته لم يتغير .. فمازال هو نفس الشخص ..

هجر بلدته عاطلا .. ومازال ما بين الحين والأخر تنازعه الحقيقة

- **بعد شهرين ما التغيير الذى أحدثته بحياتى ؟ .. هل تركت أمى تبكى .. لأعيش داخل مسجد أشبه بالزاوية على طريق مقطوع ؟ ..**

لقد عشق حياة المسجد .. ولكنها لم تجد حلا لمشكلاته ، فقرر أن يخرج من تلك الصومعة ليبحث عن عمل .. فقد إستغرقت منه ردح من الدهر .. دون جديد

ولكن من أين يفد بالعمل ؟ ، لقد تيقن بعد تلك الفترة .. أنه لا فارق بين بلدته وحال تلك القرية ، الكل غارق فى مستنقع البطالة .. ومثله مثل الكثيرين .. بدون عمل ، ولكن ما الحل ؟

وأخيرا .. وبعد تفكير مضنى ، تذكر أن أحد زملاءه بالدراسة وإبن بلدته .. يعمل بالعاصمة ، ولكن لا يعرف كيف الوصول إليه ..

تحرى عن رقم هاتفه .. حتى وجده ، وبإتصال بسيط وجد العمل ..

وكانت الصدمة الفجائية ! ..

إن العمل الذى رشح اليه بواسطة زميله .. " بار مان " !! .. فى أحد الملاهى الليلية .. بفندق خمسة نجوم !! ..

لحظتها ..

نظر فرات إلى يديه مصدوما .. مبهوتا من هول الخبر ..

- **أتلك اليدين التى طالما أمسكت كتاب الله ؟ ..**

بالنهاية قدر لها أن تمسك زجاجات الخمور .. وكؤوس الثملين ، ما هذا التحول القطبى العجيب ؟!! .. من أقصى اليمين إلى أقصى اليسار ، من طريق ربه إلى مستنقعات الشيطان.. من بيت الله إلى معاقل إبليس ، من الطيبات إلى الأوزار .. من الصلاة والعبادة إلى العربدة والمجون ، من التهليل والتسبيح إلى اللهو والفجور ، من الحور العين إلى الساقطات الفاشلات ، من النجاة إلى برك الهلاك .. من نعيم الجنة .. إلى عذاب النار ..

من الهدى .. إلى أسفل سافلين !!

تأمل قليلا هذا القدر .. وسوقية التحول ، يلقى به من إختبار إلى إختبار .. ويقلبه رأسا على عقب ، ولكن بالنهاية لم يكن لديه إختيار ، إنصاع لمصيره الذى أركعه .. وقسمته التى أرغم عليها .. دون إرادة ..

فسيطرت عليه .. وهيمنت بإجحاف ..

لملم حاله وإنطلق مغادرا المسجد .. إلى شارع الهرم ، حيث الملهى ، دون أن يملك حتى رفاهية أن يبدى إستياءه أو تململه من هذا الإنتقال العبثى ..

وصل الى الفندق ..

وما إن ولج من الدهليز الفسيح إلى باحته .. حتى تم تفتيشه بطريقة سمجة وغلظية ، وتلقى جرعة من السخرية والإزدراء .. تحامل .. رغم ما تثيره تلك البقعة من تقززه وتأففه ، إلا أنه بدى للجميع داعيا للإضحاك .. بلحيته ورأسه الحليقة

ظل يبحث إلى أن وصل إلى باب الملهى ، أول ما لمحه بعد دخوله مباشرة .. أنظمة الإضاءة والأنوار الملونة .. المنتشرة على حوائط وأسقف القاعة .. والديكور المبهرج المفتعل .. والمبالغ فيه ..

تحرك عدة خطوات ..

ليجد عند باحة الإستقبال ثمة منضدة صغيرة .. وفتاه شبه عارية واضعة أحد أرجلها على الأخرى .. ونصفها العلوى قد مال على صدر رجل ثمل ،كانت تفضى اليه بحديث طلى .. تدعوه بدلال ليأخذ منها كأسا ، نظرا إليه فى سخرية شديدة ،لم يغير ظهوره أمامهم بغتة .. من وضعيهما شيئ

أما هو فعلى العكس تماما .. إستوخم المكان .. وهزته رعشة صادمة ، رغم توقعه أن ما يراه .. غض من فيض مما يحدث هنا ..

ما إن تحرك عدة خطوات أخرى .. حتى سمع أصوات ضحكاتهم تتردد .. دون إكتراث ، أشرف على الفراغ الواسع للملهى ، لمح صالة كبيرة وبها مناضد مرصوصة .. تحيطها الكثير من المقاعد ..

ورجال وفتيات .. يروحون ويجيئون ، يتمايلون ويترنحون ويرقصون .. حاملين الزجاجات والكئوس ، وتطن ضحكات الغانيات السافرات الثملات ..

نظر محدقا ، مذهولا برداءة وفحش المشاهد ، تعثر بين الوافدين بكثرة والعاملين الطوافين الحوامين ، تأمل فيهم لعله يرى زميله .. بالنهاية لمحه فى أخر الصالة .. بالزى الرسمى لطاقم العمل .. وما إن رأه حتى تسلل إليه حاملا حقيبته الصغيرة .. وبعض من اللاهين ينظر إليه فى إستغراب ودهشة .. مستنكرين ، بدا كرجل من الجهاديين جاء ليفجر المكان الغاص بالفواحش !!

....

وبعد يومين ..

شوهد فرات .. وقد أزال لحيته .. وسمت الأيام الماضية .. ونفرت عن طلته المسحة السجية ، كان يستلم عمله خلف البار ، يحدثه صاحبه مستوضحا ..

- **هذه مائة زجاجة "ستيلا " ، وهذه مائة " هينيكل كنز " ، وهذه مائة زجاجة " أى دى " .. وإجمالا هذا هو " الأستوك " خاصتك الليلة**

كان فرات فى ذروة إندهاشه .. ينتظر إيضاحا أكثر ، قال له صاحبه مستطردا ..

- **أعرف جيدا أن هذه الأسماء تبدو لك من أوابد الكلم .. ولكن هذا فى بادئ الأمر فقط .. وحالما ستعتاد سماعها بوفرة هنا ..**

وكانت لحياتة بالملهى .. قصة أخرى ..

شطرا أخر من الحكاية ..

فقد إعتزل فرات كل العاملين من طاقم الصالة .. وآثر الإنفراد بحاله طوال الوقت .. مبتعدا عن كل الفتيات والشباب ..

وما يقترفوه من آثام ..

نفر منهم ولم يندمج فى صحبتهم .. وبغض وعاف عاداتهم ، وطفق ينظر إليهم نظرة سخرية وتدنى .. ولاسيما الفتيات منهم ، فهؤلاء هن الفاجرات الداعرات .. فمجرد مصافحتهن إثم وذنب عظيم ، كلما تحسس تميمة أمه الناشبة بصدره .. تذكر نصائحها بألا يقرب هذه النوعية من الفتيات ، فهن سبب المهالك .. هن حبائل الشيطان وذريعته .. ومستهل طريق النار مكث مبتعدا نافرا ..

إجتاح فؤاده ضجر جامح من تلك الأفعال الناحية إلى البذاءة والفحشاء .. رغم جل محاولات الفتيات البغيات لجذبه ..

يتباهين بوقاحة لإسترعاء إلتفاته ، كان بالنسبة لهن وجه نظيف .. لم يلوث بوسخ هذه المهنة ، نادرا ما قد تجد مثله فى هذا المكان .. لذا كان صيدا نفيسا .. مغريا لهن ، ولكن دون جدوى ..

عاش بينهم عفيف الإزار .. ولم تتمكن إحداهن من إستقطابه .. أو إستمالته ..

قضى جل أوقات فراغه وراحته .. بين أقلامه السوداء ولوحاته السيريالية ، وإتخذت لوحاته بدورها طابع الملهى .. فقد عبر عن روح المكان بطريقته .. ومعتقده وإنطباعاته المتلاحقه ..

وفى إحدى الليالى .. كانت الصالة مزدحمة عن أخرها بالزبائن .. وأصوات الموسيقى تعج بأرجائها .. وتموج بوفرة كل ضروب الفواحش ..

هذه ترقص لأحدهم وهو يتحسس أجزاء من جسدها .. وهى تحاول أن تدرأ يده عنها ، وهذه تجلس على رجل زبون ، وهذه تواعد أحدهم ، والحاذقة هنا .. هى التى تستطيع أن تخرج من هذا المكان .. دون أن ينالها أحدا من الزبائن .. " صاغ سليم " ، وكأن لم يمسسها أحد أو يدنس شرفها ، ولا تسمع هنا إلا طرقعة الزجاجات ورنين الكئوس .. وغنج الثملين المخمورين

كان فرات خلف البار .. قابعا .. كعادته كل ليلة ..
يمارس أعماله الموكلة إليه ، هذا يريد زجاجة "ستيلا" فيعطيه .. وأخر يريد زجاجة "أى دى" فيعطيه ... وهكذا ، إلا أنه خارج الأحداث .. لا يشارك أحدا .. ولا يحادث أحدا .. إما مع أقلامه وأوراقة .. أو جالسا أسفل البار .. تعمى عيناه عما يحدث ، ولكنهما جاحظتن كسهم مارق .. يكاد ان يخترق جدار البار إلى شفافيات المجهول
وبينما هو على حالته تلك ..
قطع سرحته الطويلة .. طفل صغير فى الخامسة من عمره ، ولج اليه من جانب البار .. وخلفه إحدى العاملات اللاهيات ، وكانت هرمية الشكل وثمينة جدا .. متورمة من كل جهة .. وكأنها بالون سينفجر ، ولا يعرف بالضبط ما فائدة مثل هذه فى هذا المكان .. الباحث عن الفاتنات ممشوقات القوام ..
همست فى أذنه حذرة .. حتى لا يسمع الطفل ..

- **إعتنى به وإجعله تحت ناظريك .. ولا تدعه يدخل الصالة مهما حدث .. لا تدعه يرانى ..**

خلت سبيله وإختفت ، إبتلعتها الصالة وأضاعتها بين وشائجها

دنا الطفل من صاحبنا متآزفا .. وألقى بجسده عليه متثاقلا .. أزاحه فرات .. ودرأه عنه .. ونظر إليه مستنكرا عابسا ، فلامناص أنه على شاكلة أمه ، أعماه رفث المكان عن كونه .. طفلا .. بريئا كالثلج .. لم يعكر أديمه .. إثم أو فاحشة

قال الطفل بنبرة حبية آهلة ..

- **كل الناس هنا يحبوننى .. فهل تحبنى ؟..**

نظر إليه بسخط وأشاح عنه وجهه .. فتغيرت فجأة ملامح الطفل الملائكية .. وكاد أن يبكى ،لم يستطع فرات أن يتجاسر على قلبه الواهن .. لم يحتمل عبراته وقد تأهبت على عتبات مقلتيه نظر إليه بعطف ورأفة .. وإحتضنه بقوة حانية .. ثم أطلقه مداعبا ..

- **وما هو إسمك ؟**
- **إسمى أحمد**

وقد كان لدغا فى حرف السين .. فبدى أكثر لطفا وسجية ، وأردف الطفل ..

- **أمى لا تريدنى أن أترك مكانى .. فهى تعمل عاملة نظافة هنا ..**

نظر فرات إليه ، ورفع ناظره أعلى البار .. ليكشف عجيج الصالة .. وجد أمه تتمايل بين ذراعى أحد الزبائن .. يداعبها ويلاطفها أوطأ جسده وأيقن أنها لا تريده أن يبصر رداء عيبتها ..

وأن يسفر قبح ما تفعل ..

سكت برهة ثم حدث الطفل مدللا ..

- **وماذا تعمل يا أستاذ أحمد**

- **أنا أدرس فى رياض الأطفال بالمعادى .. فى المرحلة الثانية**

رمقه فرات مليا .. واجما مبهوتا ..

وكيف لمثل هذه الساقطة أن تحرص على أن تعلم إبنها .. وتلحقه بمكان ذو مسوى عال مثل ذاك ..

من أين لها من الأساس أن تعى قيمة التعليم ..

رفع ناظره أعلى البار .. ليجد الرجل يتحسس أردافها الممتلئة .. ويتلمس مواطن عفتها .. يهامسها ويواعدها منتشيا..

قضى فرات ليلته مستنكرا .. فى حالة إزدراء شديدة .. ينتظر فروغها على أحر من الجمر ، وما إن إنتهت حتى هم إلى لوحاته وأقلامه .. ليزل عن روحه سوءة تلك المشاهد التى إلتصقت بها طوال الليل ..

ولكن هذه المرة لم يجد ما يرسمه .. بدى متعثرا ومرتبكا ..

لم يخط قلمه سوى مجموعة أبيات شعرية كتبها ، ظل يحدق فيها ، إنفلت قياد عقله .. ضل وتره بين دروبها .. يتأمل .. تفرس مليا فى الحروف والكلمات المنثورة .. كأيامه التى ثرثرتها رياح المصائب ونوازل الخطوب وشدائد الدهر ..

إلى أن إنتهى به الحال .. بين اللاهين والعابثين ..

الى أن قطع سرحته .. للمرة الثانية .. إحدى الفتيات العاملات بالصالة ، باغتته قائلة ..

- **يا إلهى أتكتب شعرا ..**

  إن خطيبى كذا يكتب شعرا ..

نظر إليها فى إستعلاء ونفاذ صبر ثم تجاهلها .. وأكمل تأمل وريقاته ..

فتداركته قائلة ..

- **لما تنظر لى بهذه الطريقة ؟ .. لست كما تظن .. أدرى أنك متعلم .. وإنى لست بجاهلة ، أنا حاصلة على ليسانس أداب قسم التاريخ .. ولكن إنها الظروف ..**

نظر اليها هذه المرة مشدوها .. بإندهاش شديد ، أردفت حديثها

- **وجل الفتيات هنا متعلمات ، منة حاصلة على بكالوريوس إقتصاد وعلوم سياسية ..**

وشيماء حاصلة على ليسانس خدمة إجتماعية ، كلهن هنا أبناء عائلات .. ولكن لهن ظروف قاسية ، لكل واحدة منهن حكاية مؤلمة .. جعلتها تمتهن هذه المهنة السيئة ..

قطع حديثها شاب فى العشرينات من العمر .. دنا منها

- **إنتهيتى ؟ ..**

نظرت إليه متبسمة فى زهو وتباهى ..

- **أجل .. أنهيت عملى ..**

أقدم لك سامح .. خطيبى .. بكالوريوس علوم

وأماءت إلى فرات بطرف بنانها ..

- **وهذا فرات .. حديث العهد هنا بالصالة ..**

- **أهلا**

وهنا إنتهى الحوار ..

حيث إصطحبت العاملة خطيبها وغادرا ، ولكن مازالت الحيرة تدور رحاها فى روع فرات .. لم تنتهى ..

- **كيف جمعت الدنيا النقيض مع النقيض ؟ .. الصحيح مع التالف ؟ ، كيف لأرض خصبة .. مثمرة .. أن تصبح عقيمة ؟ ..**

كيف يقرأ الإنسان كتاب الله ويجوب بحور العلم ، وينتهى به الحال فى ملهى ليلى ؟ ..

كيف ؟ ..

مر اليوم تلو اليوم ، دنا خلالها من كل أفراد طاقم العمل .. وإندمج معهم كما لم يتصور من ذى قبل .. ووشج بحكاياهم وأوجاعهم ، تغيرت نظرته تجاههم شيئا فشيئا .. وبدأ يعاملهم معاملة أدمية ، وعرف تفصيلا حكاية كل واحد منهم ..

فمثلا شهد .. تركت بيت أبيها هاربة .. بعدما علمت أن سرها قد إفتضح ، وهتك ستر علاقتها مع سائق الميكروباص .. وعلم الجميع بقصة حملها طفلا منه ، وقد مضى على هروبها هذا ستة أعوام ..

وهى الأن تربى إبنها الوحيد .. وقد إستغنت به عن الدنيا بأسرها .. بعدما غدر بها هذا السائق ورفض الإعتراف بنسبه ، ومما يكدر عيشها أنها كل يوم تنفطر حزنا وهما إشتياقا لرؤية أمها

.. وهذا عيد الذى هام على وجهه .. وراء شهد .. عاشقا مفتونا ، كان الوحيد الذى يعرف الى أين هربت .. فقد كان من نفس بلدتها ، كما أنه كان واسطة عملها بهذا الملهى .. ولم يفصح يوما عن سرها .. لعلها ترضى به ، إلا أنها يوما لم تفعل فقد وهبت حياتها لوليدها .. وكل ليلة يبكى عيد ويشرب الخمور حتى يثمل .. يتمنى نظرة واحدة منها ..

ولكل فى الملهى حكاية مثل تلك ، أسماء الهاربة من تحرش أبيها ، وعلياء التى ضاق بها العيش مع زوج أمها ، وسماح التى ساق إليها زوجها أصحابه .. لينهشوا لحمها ويلثوا عرضها كل ليلة .. ومنة ومهجة ورحاب ودعاء ورشا وغيرهم الكثيرين ..

والقائمة تنقص وتزيد كل ليلة ..

الكل جاء هنا بألامه وهمومه ومثاقيله .. ظنا أنه ملاذا أمنا ولكن مع تداول الأيام ، تبين أنه ليس إلا منفى .. غربته أكثر وجعا وإيلاما من حكاياهم ..

إستمر فرات يجلس وحيدا كل ليلة .. ينظر لكل واحدة .. ويتأمل ، كم تقسو هذه الدنيا على عليهن .. وتبديهن على غير

حقيقتهن ، بل وتضع على طلاتهن أقنعة قبيحة .. تنفر الناس منهن ..

لكن ما العجب فلا فارق بين حاله وحالهن .. فهو هارب مثلهن .. يحمل على عاتقه هما لا يقل ضراوة عن همومهن

وثمة سؤال يعكر صفوه كل يوم ..

- **ما هى الذنوب التى إقترفناها .. لنعيش على تلك الحال ؟ ، ولماذا كتب علينا أن نبقى تحت هيمنة غيرنا ، وتركيعه ؟ وهل سنظل أسيرى تلك السيطرة ؟متى نملك القرار ؟..**

كان قد أدرك أنه من أسوأ الأمور .. أن يحكم عليك بأديمك .. بالإنطباع الأول ..

وفى حقيقة الأمر ..

فإن هناك من يملكون جوهرا وقصة تحكى .. فى أزمان خويت فيها النفوس ، وإن عالم الملاهى الليلية كمثال ..

فيه من الحكايات ذات المعنى ، إذ أن كل واحدة من العاملات فى تلك الأماكن تحمل على عاتقها .. نير حكاية موجعة قذفتها إلى أوحال المهالك ، وأساغتها بين أنياب الوحوش الأدمية .. المترصدة والمتلصصة ..

تلك الفترة .. جعلته ينظر لهذا العالم على أن فيه نفوس ضائعة وممزقة ، قد تكون من داخلها نظيفة وبريئة رغم أن أديمها .. راقصات وفاجرات

" تمت "

عم فرات

فى صباح ليلة صيفية ..
قبيل شروق الشمس ببرهات ..
والمآذن تتلاقف الإبتهالات والتواشيح ..
أذونا بدخول الفجر ..

كان عم فرات يسير على جسر المشروع .. يمتطى حماره العجوز .. والذى كان يمشى الهوينى كعادته كل صباح .. فى رتابة وبطئ يتعقبه على بعد قريب .. كلبه الهزيل متلكئا ، مندسا بين الزراعات .. بالكاد تتبين هامته .. تعيقه أعواد القمح والبرسيم الندى يتساقط عجيجا كالغبار البارد .. يرى أثره على وجه عم فرات النَدِىّ .. من فيض رذاذ الماء المتناثر ، والذى بدوره إكتنف مسحة حماره .. فبدى هو الأخر شديد النداوة ..

ولم يسلم كلبه .. كادت قطرات الندى أن تعمى عينه عن الطريق .. فتعثر عدة مرات .

كل فلق .. يتراءى هذا المشهد ..

عم فرات ماضيا بمطيته يلقى التحية على الفلاحين .. جيرانه وآل بلدته .. الذين خرجوا مثله باكرا .. يقتفون أثر الرزق .. عن يمينه تارة وعن يساره تارة .. كُلٍ بإسمه ، وعلى جسر أرضه ..
طفق منتصبا للأمام وعيناه لا تفارقان الطريق .. لا يميل بجسده أبدا .. حتى لا يتعثر حماره فى الأوحال الناتجة عن الطين الندى .. رغم أن حماره يعرف الطريق المعبد جيدا .. فلا يخطئ وطأه أبدا .. حفظه عن ظهر قلب ، فقد إجتازه طوال عدة سنوات خلت .. ولأنه يطوى المسير متآزفا .. فبالكاد يُسمع صوت تحيته ، أما هو فلا يلقى بالا أَسَمِعَهُ أحدٌ .. أم لا ، بيد أن الإستجابة تأتيه مدوية من بعضهم .. فتؤنس مسيره وحيدا ..
كان عم فرات رجلا سجيا .. حسن السمت ، محبوبا بين أهله وجيرته ، يعمل طحانا بالطاحونة العمومية المملوكة للحاج حسن الباهى " أحد أثرياء البلدة ، وحفيدة ملاكها القدامى " ، وهو أول من يفتح بابها العتيق .. ليطمئن أن كل شيئ على ما يرام ..
وثمة شخص أخر .. منوط إليه مشاطرة عم فرات إدارة الطاحونة .. يدعى مرسى مجاهد ، ورغم أنهما يتشاركا تحمل

التبعة .. إلا أن جل الأعمال الشاقة والأشغال الجاسية وكلت قسرا لعم فرات .. بينما أختير لمرسى أخف الأعمال وأيسرها ..
فكان عم فرات يقوم بحمل زكائب الحنطة والذرة الثقيلة لرفعها إلى القادوس .. ويتابع عملية الطحن من بدايتها .. وحتى إستلام أجولة الدقيق ..
ويعمل على صيانة ماكينة الطحن .. الصيانة اليومية ، كما أنه كل صباح يقوم بتغيير المازوت الأسود القديم ببئر الوقود بأخر جديد .. وذاك عن طريق جلب براميل المازوت الجديد من المستودع ..
ويعمد إلى حجر الطاحونة .. وينقبه بشاكوش حاد المقدمة .. ليُقْسِيهِ مرة ثانية ، فبعد كل يوم عمل يصبح الحجر تلما .. لا يصلح للعمل على حالته القديمة ..
أما مرسى فكان فقط يقوم بإحصاء الأجولة الواردة ، وتلك الناتجة بعد عملية الطحن ، ويتلقى النقود التى يدفعها الفلاحون مقابل طحن حبوبهم ، ويبرع فى إنتهاب خير الطاحونة .. فيدس بجيبه ما يدس ، ولا يبقى إلا الفتات ، ورغم يسر مهمته .. إلا

أن له إبنان يساعدانه على إنجازها .. ليزداد عدد الناهبين إلى ثلاث

أما عن عم فرات .. فلم يكن له إلا بنت وحيدة تدعى مريم .. قبيل سن الزواج بسنوات ، كانت تحضر إليه ظهيرة كل يوم ومعها غداؤه اليومى المتواضع ..

قطعة الجبن القديمة وثلاثة أرغفة من " عيش الصب " .

وبضع ثمرات من الطماطم

وتساعده فقط لأقل من النصف ساعة .. حالما يتناول غداءه ، وغالب الوقت لا يسمح لها بذلك .. وذاك أنها كانت مطمعا لأعين الناظرين ، ولاسيما إبنى مرسى عديمى الحياء ، فقد كانت فتاة غضة بضة فائرة الجسد .. فائقة الجمال .. عيناء مليحة القسمات زهراء الوجه .. إعتل القمر غيرة من بهائها ..

كان عم فرات من أولى العزم ، فبرغم ما يتحمله من شقاء فى الطاحونة " مقارنة بمرسى " .. لا يجازى نصف أجرته .. ولا يعرف العلة بالضبط ! ، ومهما بدا نصبه ومكابدته .. لا يلتفت الحاج حسن أبدا ولا يلقى له بالا ، إلا أن وشاية مرسى به عند

الحاج حسن كانت سببا وجيها لذلك .. ويدعمه تصديقا أنه كان من الرجال المفوهين .. الذين يملكون أفانين الكلام ..

كان يعانى فرات صلف الحياة وقسوتها ، إذ كان عليه أن يخرج من بيته يوميا مع أذان الفجر .. ويستمر شاقا فى عمله كالثور معصوب العينين حتى إنتصاف الليل ..

دون أن يتململ يوما أو يبدى أزفه ..

وكما لم ينصف فى عمله .. فلم ينصف فى بيته أيضا ، كانت له زوجة جافة ومادية ، فبدلا من أن تخفف عنه عناءه .. كانت دوما تنبذه وتسخر منه .. تصغر من شأنه وتستقل جهوده ، بينما تستكثر عليه أى لحظة راحة .. فحصيلة عمل يوم عندها .. أفضل من بقاءه عاطلا ..

وهو من هو ، يقضى دوامه الأسبوعى فى العمل بالطاحونة ، ويوم راحته .. يقضيه بين سعف النخيل يصنع " المقاطف والحاويات " ليبيعها للقرويين ، إذ أن ما يتقاضاه من عمله بالطاحونة .. بالكاد يكفى إحتياج البيت وعوزه

كما أن له بنتا فى سن الزواج .. تحتاج من يجلب لها جهاز عرسها ، فسنين طوال من العمل .. لا تكفى فلاح بسيط ريثما يجهز إبنته ويسترها ..

أما عن سيجارته الملفوفة فقد كانت ملاذه الأخير عندما يضيق خلقه ويختنق .. كانت تخفف عنه ، وينفث ألامه وأوجاعه مع دخانها .. لذا تفارق أصابعه أبدا .. إذ كان يدخن بشراهة ..

ومما يساعده على ذلك أنه كان يجلبها مجانا من عمله بالطاحونة .. كان يُهَدى السجائر من الزبائن " من كل الأنواع ملفوفة ومستوردة " ، ويعود كل ليلة بحفنة منها دون عناء .. ودون اللجوء إلى حانوت الدخاخنى ..

كانت زوجته كل ليلة تغافله وتقضى عليها كلها .. وتبيدها ، تفرك جل ما جنى من سجائر بعنف وغلظة .. حتى تبلى عن أخرها ، فتنغص عليه حياته بتدخلها حتى فى سجائره .. وموضع راحته ..

....

مرت الأيام تلو الأيام ..

عاش خلالها عم فرات مهضوم الحق .. بائس الحياة ، فلا راحة فى العمل ولا راحة فى بيته ، فبينما يكايده مرسى وأولاده فى الطاحونة .. ويستنفذ جهوده ويوشى به عند مالكها ولا يجنى سوى الفتات ، كانت زوجته تكدر عيشه .. وتعكر صفوه ، وتبليه بأفعالها السيئة .. ومعاملتها المقيتة ، فلا يتذكر يوما أنه أفضى إليها بحديث يخفف من روعه ..

عاش حياته حزين الجأش .. فزعا ومرتاعا .. من إنقضاء عمره المحتوم وهو على تلك الحال .

....

يذكر أنه فى ظهيرة يوم ما ..

قدم الحاج حسن الميهى فجأة الى الطاحونة زائرا ، وقلما أن تحدث مثل هذه الزيارة ، وكان مما هو معهود عنه ..

أن مجيئه للطاحونة يعم بالخير على كل العاملين .. حيث يهب كل إيراد اليوم لهم ..

فى هذا الآن ..كانت مريم تقف عند الماكينة تفرغ أحد أجولة الذرة فى القادوس ريثما يتناول أبيها غداؤه .. فرأها الحاج حسن

سأل عنها ، فإستغل مرسى هذه الفرصة .. لينال من عم فرات ويوشى به ، فقال له ..

- **إنها إبنة فرات ..**

نادى عليها الحاج حسن وأعطاها صاغين قائلا ..

- **ليس هذا مكانك .. فلتبقى بجوار أمك ..**

وما إن خرجت حتى نادى على عم فرات ..وظل يوبخه ويؤنبه على تركه لمكانه ، وخطورة وجود طفلة بالقرب من القادوس والتروس الغليظة وسيور الحركة ..

هرعت مريم لتوها الى أمها لتبشرها ، ولكن فى طريقا تذكرت أن أمها لا تدع معها مليما إلا وأخذته ..

فآثرت الصمت وألا تخبرها ..

وحتما ستعرف مساءا بزيارةً الحاج حسن .. دونما أن تعرف خبر الصاغين ..

بينما على الجانب الأخر ..

وكعادته ، وجدها مرسى فرصة أخرى سانحة ليوقع غريمه فى مغرز .. ويحرجه أمام الحاج حسن ، فقد كان على علم بصلف زوجتة وكثرة توبيخها له ، كما يدرى شدة طمعها وجشعها

فبعث لها أحد أبناءه ليعلمها بقدوم صاحب الماكينة ، كان يعرف أنها ما إن تعلم إلا وستأتى متلهفة .. حتى تلحق بزوجها قبل أن ينفق عطية الحاج حسن فى سجائره وعبثه ، وقبل أن يدس عنها شيئا ، وقد حدث

فوجئ عم فرات بزوجته تلج من الباب الكبير حافية القدمين ، كان قدومها نذير شؤم ، أسرعت إليه وحصحصت تمد يدها فى فجاجة تطلب ما أخذ من مال قسرا .. لا تكترث بوجود الحاج حسن ..

ظلت تلح وتلح بطريقة سمجة فظة .. وهو يحاول أن يسكتها بشتى الطرق ،إحمرت وجنتاه وإحتقن وجهه بالغيظ .. فهى لا تعرف أن الحاج حسن أعطى جميع العاملين منحة زيارته .. إلا هو .. عقابا له على تقصيره

إستمرت فى إلحاحها حتى علا لغطها وسمعها زبائن الطاحونة .. فهاجوا ما بين متفرج وضاحك وأخرين يحاولون نصحها أن تكف عن فعلها ..

كما سمعها الحاج حسن ، وما إن رأته ينظر ويتحرك إليهم .. حتى هرعت لتوها هاربة الى خارج الطاحونة ، فقد كانت تهابه بشدة مما يحكى عنه وعن ذويه من فظاظة وغلظة وعنف ..
إستشاط الحاج حسن غضبا وسخطا .. وظل يهين عم فرات بشدة ويسخر منه .. وبالنهاية طرده وقطع عيشه ..

أما هى فزادت الطين بلة ، إذ تركت له البيت ولجأت الى أهلها .. ظنا منها أنه أُهدى كزملاءه ولم يعطيها شيئ .. بل وأنكر ذلك ، ظلم فى عمله .. وظلم فى بيته .. وتلك كانت حياته ..
كانت جل جوانب حياته مظلمة .. معتمة بسواد ولجاج قاتم ، إلا جانبا واحدا .. مريم .. إبنته العطوف الحنون وموضع راحته الوحيدة ، كانت تشعر بأقل أوجاعه ، ولا تلبث أن تعتنى به وتزيل رفث الحياة عن وجهه .. وسوءة الأيام عن غاربه ..
أجمل لحظاته تلك التى كان يقضيها معها يدللها ويداعبها .. ويحاكيها ويغازلها ، ويباهيها بشعرها المسترسل المخضب بالحناء .. وجدائلها الموثقة كسنابل القمح .. وأديم الليل الموشح بسواد الأرض الخصيبة فى عيناها .. ووجنتيها المنتدية بماء الورد ،

وعفويتها وبراءتها .. شبيهة الثلج الأبيض الشفيف ، ونبرة صوتها الحبية المتسامحة ..

كان قد تبنى معها عدة عادات .. لم يحاول التخلى عنها مهما حدث ، فمثلا كان حريصا أن يُبْقِى لها كل ليلة " صاغا أحمر " .. لتنفق منه كباقى رفيقاتها ، لم تطلبه أبدا .. كانت تنتظر أن يعطيها إياه لتتأكد أنه مازال على وعده معها .. ولم ينكث العهد ..

وكانت له معها ليال سمر بيض ممتعة .. يمضيانها فوق سطح المنزل .. يفترشان حصير من أعواد السمار ينظران مليا إلى القمر الزهور .. وهو يكلل رؤوس النخيل ، كثيرا ما حكى لها عن الناس الذين يعيشون هناك .. على أديمه ، تلك الحسناء الجميلة وأميرها .. وخدامها السبعة ، وذاك الفلاح الفصيح الذى يذهب الى حقله صباحا .. تداعبه الشمس ويحادثها ، بينما يداعب هو أبا قردان .. ويكلم حماره الحصاوى الصغير الشقى ، الذى ما يلبث أن يرفس .. ويستحث الثرى خلفه برجليه ..

وتلك السفاريت التى تتبين وتختفى عند جسر الأرض وتتسلى معه وتثب عابثة .. وهو يتناول غداؤه عند شجرة الجميز الكبيرة .. العتيقة ..

كان يحكى لها كيف أن النجوم النيرة تهديه نقودا ذهبية وأحجارا كريمة ..

كان حريصا أن يلحقها بإحدى المدارس .. إلا أن الفاقة والعوذ حالا دون ذلك ، فإشتد وجده لذلك .. كان يأمل أن تنال قسمة من الدنيا .. أوفر حظا من قسمته ، إلا أنه حاول أن يعوضها قصور الحياة معها .. بمعيته وإعتناؤه وحنانه عليها ..

كانت هى زهرة حياته ومهجة عمره ، والوميض المتلالئ فى عتمة أيامه وظلمتها ، والإبتهاج البشوش الذى يشبه عبق الزهور الندية .. ونور فؤاده الذى ما دام متقدا .. ما دام الخير باقيا ..

إبتسامتها الريانة تعطيه جسارة ، وغنج حديثها يثلج صدره ويربط جأشه ..

كانت هى حياته .. عاش لها وبها ، وإرتضى عمرا قصيرا .. يعتنى بها ويرعاها.

....

يذكر أنه فى أخر أيامه .. وأثناء سيره كعادته صباحا ، تعثر حماره فى جزع شجرة ضخم .. رقد بعرض الطريق ، فوقع هاويا بعنف وإنكسرت إحدى قدميه .. كسرا مضاعفا ..

عاش إثرها وحيدا بمنزله .. أسير لجدران إحدى الغرف ووحشتها ..
إشتد به الحال .. ومرض مرضا وجيعا ، وإضطر للتقوت من أموال الصدقة ، إذ فرغ البيت من الخير .. فلا طعام ولا نقود إلا أن الحال لم يدم .. فإضطرت زوجته أن تخرج للعمل مع عمال التراحيل فى المزارع ، بينما بقيت مريم بجواره تطببه وتراعيه .. وتداوى علاته ، تواسى وحشته وكربته
ومرت الأيام .. وجادت وحدته ..
فلا زائر يزوره .. ولا معيل يكفيه الإحتياج ، حتى زملاءه بالطاحونة إعتزلوه وهجروا بيته .. وكأن به داءا معديا ، لم يذكر له الحاج حسن فضلا .. فلم يعنه بمليم واحد .. ولو على سبيل الإعتراف بالجميل ، رغم ما عاناه فى الطاحونة التى أُبيدت صحته فيها .. حفاظا على ماله ، وصيانة لحاجاته ..
لم يشاطره المرض .. إلا كلبه الأعجف ، لزم باب البيت فى إعياء شديد .. ينتظر هو الأخر دنو ساعته ..

ساد ساحة الدار .. صمت غرائبى كئيب ، فلا حراك بالخارج كما لا حراك بالداخل .. وكأنها منطقة محظورة ، حتى جيرانه تحاشى كل منهم الإقتراب .. حتى لا يتكبد إعالته ولو ليوم واحد ..

عانى فى تلك الفترة أشد المعاناة ، خدده الفقر وكشر عن أنيابه .. فأطواه على نفسه ، إبتلع ما يُكِن جأشه من أجاج وغمة .. فمن مرض ووحدة وهجران وجحود ، إلى أسرة تتلظى بنار الفاقة والحرمان .. وتأبى ألا تمد يدها للتسول

عم فرات .. الذى عاش عمره شاقا ، ما من منزل إلا وبه كسرة خبز قد طحن حنطتها ، ما من فرد إلا وقد ذاق حلاوة صنيعه ..

عاش مظلوما لتلك البلدة الجحود المرائية ، كان حبهم له .. حبا زائفا باهتا صنيعة قلوب خاوية ..

الكل يعرف عم فرات .. وكلهم ينكر وجوده اليوم .. كأنه لم يكن ، فبمجرد إختفاؤه .. إنتهى ذكره وطويت صحيفته .. ولم يسمع له صدى ، وكأنما طمست الريح أثره .. فبات نسيا منسيا

لم يطل عم فرات فى مرضه كثيرا ..

ثبط وذبحته الأيام بسكين تلم ، أصيب بجلطة رئوية شديدة .. قبل حتى أن تلتأم قدمه من الكسر ..

برح الدنيا الزائلة وحيدا .. كما عاشها وحيدا .. إلى قبر لن يجد فيه إلا الوحدة ..

مات كمدا ..

خمد .. بعد نزع وإحتضار دام ردحا وفيرا من الدهر ، كانت جنازته أشبه بالسيل العرم ..

نسوه حيا وذكروه ميتا ..

لم يشاطره الفقد إلا كلبه أيضا .. وجدوه نافقا صبيحة اليوم الثالث ، ودع الدنيا .. كما ودعها صاحبه ، ودع البيت سريعا .. كما ودعه المعزيين ، الذين ما لبثو أن تضاءلوا شيئا فشيئا ..

حتى لم يجد البيت من يزوره .

" تمت "

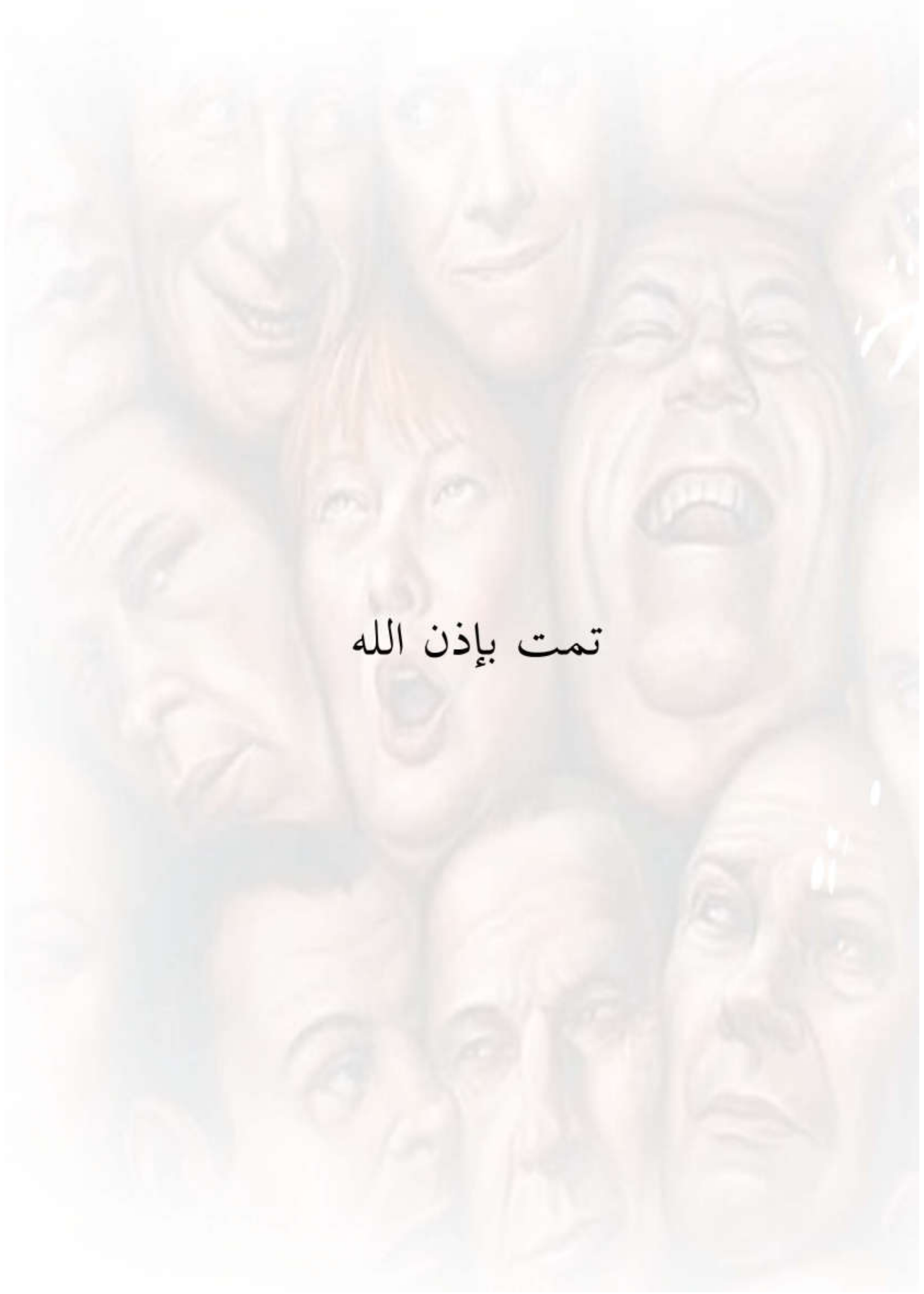

تمت بإذن الله

مناوشة

" حكاية قصة "

من بين حكايا العدم الأزلية ووشائج المجهول ، ومخازن الحلم العتيقة المنسية ، والأمال المتضورة جوعا لأفكار ملهمة .. هاجت الشذرات وماج الرفات فى أرض راكدة مستكينة ، إرتضت الخرس والخضوع .. وعششت فيها عقارب الخمول والعطب .. تزاحمت الأدخنة الترابية .. وإحتشد العجاج وزوبع برتابة عشوائية ، وثار ثورة تمرد على نظام قمعى ، إكفهرت الأجواء .. وإستعرت الرغبة الجموحة فى عزم حتمى لخلق جديد .. كفورة دم فى عرق بربرى ..

كسرت أواصل الركود والصمت والفتور ، رعدت وتقرعت ، وقعقعت كأهازيج شعبية عفوية ، وإختلج الحقل الهزيل كثير الحصى ، وتعاظمت الإرتعاشات فى المشهد ، إنفجر البركان فائرا .. يبصق الذرات والشظايا

- **لقد إنتفض " حرف عربى "** ..

يزيل عن كاهله كومات الأفكار الواهنة .. والهواجس والترهات البائدة العتيقة ، ويزيح الركام والنسيان .. يبحث عن نقطة تحول ، نقطة بداية وتخم يطوى منه المسير

وهناك بعيدا ،كانت ذات الحرب دائرة مع حرف عربى أخر .. أطل برأسه من الثرى المحموم ، إنبلج من وشائج الإنفجار والفوران نافرا الشظايا والحمم .. يبحث هو الأخر عن بقعة للخلاص ..

إرتفع رويدا .. رويدا .. حتى تبين عن أخره ، طاف إلى السطح .. وإستقر على أرض ثابتة ..

أزفا الحرفان .. إزدوجا وتشابكا ووشجت روابطهما ، إلتصقا على نحو يليق .. وإتخذا عهدا وميثاقا وتشاطرا الدأب ، إلتحمت خطاهما وبدءا المسير .. ومشيا الدرب المنظم حثيثا ..

كانت صحبتهما أنيسة .. فلاذت إليهما حروفا أخرى كثيرة ، خاضت سالفا نفس الحرب .. وقطعت ذات الرحلة ، تناظمت وكونت مجموعات .. شكلت كل مجموعة .. " كلمة " ..

هذا ضمير .. وهذا إسم ، وذاك فعل ، هذا حرف جر .. وهناك إسم إشارة ، ظرف زمان وأخر للمكان ، وأولئك أخوات كان و إن ... وغيرهم من أفانين وصنوف الكلام

إقتربت الكلمة من الكلمة .. والمعنى من المعنى .. وجزل اللفظ وإستحكمت قوته .. فرصفت اللغة بجملا محكمة ذات بلاغة وروعة ، وإستبانت الحكمة والمنطق .. وأُعطيت مفاتيح الإلهام

إبتدعت نمطا للتنظيم والترتيب يخضع الكلمات للنسق المفهوم ، ولعلامات وتخوم المسير المُعبد ، فإختلقت " نقاطا " عند التنهيد .. وإلتقاط الأنفاس المتهدجة ..

وإستأنفت المضى بعد " الفصلات " ، وإعتمدت " علامات إستفهام " عند السؤال ، أما عند الراحة والسكون .. تبنت " نقاطا منفردة " ، وخطوة بداية عند مستهل كل مسير جديد ..

طوت الجمل الرحلة فى عشوائية منظمة .. كانت السبل مهيئة بشكل متواز .. منمق ومتواءم ، لكل طريق دليل وإشارة .. نقطة بداية ونهاية ، الطريق واحد .. وينتهى إلى مأرب واحد ..

ولكن ما إنفكت أن تجمعت الحروف وتآلفت وسارت حتى عصفت ريح فى عقر مجمعها .. فتفرقت وتشعب حشد الكلمات .. وتمزق خيط الفكرة ، وتشتت التركيز ..

فلاحت الحصى الكبيرة والصغيرة فى كل مكان ، وتناثرت العثرات والصخور تحت الأقدام وعلى مرمى البصر .. فى كل ناحية وصوب كل إتجاه ..

فقد قطع المشهد شهب من نار متأججة مستعرة .. هبطت من سماء الخلد .. تساقطت هاوية بشراسة .. محمومة بلظى الأفكار المتطفلة .. من سليقة كاتب ورأس مزدحم .. مصاب بسرطان التفكير..

مالت الكلمات ذاهلة شاحبة .. لا تدرى أين المسير ؟ ، ولا إلى أى صوب ستمضى ، لقد بعثرها التفريق وثرثرها الشتات .. ومزقتها سواقط النفس ، وفرقتها سطوة وقوة الأفكار الجانبية المتسللة ، فإنهار تركيز التكتل والإحتشاد .. وتحللت الكلمات حروفا منثورة ، وإنقطع المشهد يحكى قصة أخرى .. وطفق يروي ..

وللحظة ..

إستفاق الراوى .. وإستجمع قوى قريحته الكامنة يتلقى منها المدد ، يردد تأكيدات لفظية .. من مخازن الذاكرة المؤقتة ، إلى أن طفت الحروف على أديم الوجدان والمخيال .. فإلتفت حول بعضها ..

تجمعت وإستقوت وتضافرت وإلتأمت .. فثارت الكلمات من رحم العدم والمحو إلى حقيقة ولجة الوجود ، تشكلت فى تكوين مفهوم .. قديم جديد ،كلمات بعيدة عن أوابد الكلم .. كسابق عهدها ..

إنتفضت كالمارد وإندفعت مرة أخرى .. وأكملت الدرب المنظم حثيثا ، وإنطلقت من جديد فى نسق منسجم يسهل إدراكه ..

وجابت أديم الخواء المرصوف .. الموصوف ، قطعت الدروب الضيقة والشاسعة ، طالت أقاصى البسيطة وأدناها .. القفراء والبطحاء والغناء والمهدهدة والبرصاء والقاحلة ، إخترقت الحروف أغوار الصحراء ، وصعدت الجبال الوعرة الملفعة بالسحاب ، إجتازت السهول والمضايق ، وجالت فى الحقول والسهوب والمروج والأودية ، جسرت الخنادق .. وتكبدت السير بالمدقات

مرت بالشوارع .. ووقفت بالأزقة والحارات ، قطعت الميادين .. وإعتلت الصروح ، قطنت القصور .. وجابت الأروقة ، وتسربت عبر الشقوق والنتوءات ، وساحت بالمقاهى والموارد ، وتذكرت وإنتحبت عند الأطلال والأحداث ..

هاجت الكلمات المعبرة .. وتموجت الجمل البليغة ، تلاطمت وتزاحمت ، إنفردت وإغتربت ، تقاطعت وتوازت ، إنكسرت وإستقامت ، زوبعت وخمدت ..

حتى خلقت قواما مترابطا .. إسمه قصة ..

وباتت للقصة ملامح وشخوص .. ومواقف وأحداث ، تتابعت وتسلسلت .. ضجت وخمدت ، إكتملت وإنقطعت ..

وعلى لسان الكلمات والجمل دبت الروح .. وتقمصت الشخوص ، وصقلت كياناتها .. وأصبحت حكاءة ..

فوشجت أفعال وردودها ، أصوات وصداها ، فتبدلت وإختلفت وتشعبت .. تقدمت وتقهقرت .. قست ولانت وتنوعت ، من الخجل والإستحياء .. إلى الظهور والتكشف ...

همهمت .. تمتمت وغمغمت .. قهقهت ونهنهت .. دندنت ودمدمت ..

إعترفت وأنكرت ، إجهشت بالبكاء وإبتسمت ، ضحكت وكركرت ، إغتمت وبكت ، إلتمست وسعت ، أهينت وثارت ، جست وخمدت ، يئست وتفاءلت ، إنقبضت وإنبسطت ، أبت ونفرت ، رغبت وزهدت ، باحت وتكمت ، تكلمت بصوت أجش مبحوح .. وصلصلت ، ضجرت وماجت وغضبت ، هبت كالرياح ورعدت مكتظة ، إعتلت وماتت ..

مرت بكل الحالات الإنسانية .. ومنها جاءت الهوية .. المكان والزمان .. وأحداثا خلدت ذكراها .. صنعت الحروف المواقف .. ونسجت الحوار .. وتمثلت بالأحاديث والتعابير والصنائع .. وكانت الحكاية ..

« فترى هذا .. قد عشق وإفتتن ، فغرق إلى أذنيه .. وعاش متيما ، ولم يحفل بشيئ .

« وهذه .. نال منها العياء والتعب .. فخبا جمالها وخمد شغفها وحماسها ، وتيبست أطرافها .. فخارت قواها وسقطت .

« أما ذاك .. أحس دنو ساعته .. فإرتعد ، وإستلهم من الخوف حديثه .. وتبنى مواقف صائبة ، تيقن وأدرك ووعى .. وفعل الأشياء على نحو أخر .

« وأخر .. إستأنس .. فإنسجم وتوحدت فرائصه ، وإستوطن جأشه الحنين .. فإنتشى ، وتمنى تمديد شعوره أبديا .

« وتلك التى ترصدتها الأيام .. فتلاشى عندها بصيص الأمل ، وغطى ملامحها حزن ضارب فى العمق ، إرتج صدرها ألما وإعتصرتها الهموم .. وتقاعس الحلم على الجدران ..
فخيم الصمت المطبق .. وإكتنفتها الكآبة والخرس ، وقبعت فى عزلتها .. فإنطفأت شعلتها ، ونهشها الموت والمرض .

« وغيرها الذى لعب الخمر برأسه .. فخضعت مصائره لرأس مخدور ، فعاش حياة مبتذلة وخالية ، عربد .. ونحى

إلى الفجاجة وتباهى بوقاحته ، وفعل رزائل وجدت هوى فى نفسه .. وإستسلم بإذعان للبقاء فى الظل

« أما هذا فردد كليشيهات عدائية .. محتالا على ضميره ، فإحتشدوا يؤيدونه ، وحاول عبثا أن يفكر .. فإستولى عليه نفاذ الصبر ، فليست تلك قناعاته ولا معتقداته ..
فإنما فعل .. ليملأ خواء قلبه وحياته ..
وفى لحظة إستفاقة ، صرخ بأعلى صوته .. مرددا عكس ما إدعى ، فطرحوه أرضا .. وأردوه ميتا ، نفق شهيد صحوته .. وضميره اليقظ .

« وصاحبنا الذى توجس خيفة .. ونشب الرعب داخله ، إرتعدت فرائصه .. ورقأ الدم فى عروقه ، فلاذ إلى ركن من فرط الزعر ، تحجرت أواصله ، أطبق ناظريه .. وغرق فى بحور من أشباح المجهول .. تزعزعه .. وتقلبه .. وتهيجه ، وتروى له حكايا القضبان ..

وعلى حين بغتة ، إنفرجت مقلتاه على عجيج إحتفالى ، كان صوتها ، ملأت عزلته وطمأنت جأشه .. وزهقت وحشته وغمرته بالأمن والأمان ، ومازال قلبه يخفق برقع عنيف .

« وعن هذا فقد صفق فرحا وإغتباطا .. وجن سرورا ، ضحك .. قفز منتشيا .. وإغرورقت عيناه ..

حلق خلده فوق سحب الأحلام .. وإستجلى كل ما فى روحه ، ورف جناح الحب على فؤاده ..

غمرته لحظة سعادة .. لن تتكرر .

- وكأنى حينما قرأت تلك القصة .. قد عشتها قبل ذلك .. أو شاهدتها فى التلفاز .. أو سمعتها عبر الأثير .. أو طفت بأحداثها بنفسى ، ولربما جالت بخاطرى ذات مرة قصة تنتصر للأقوياء الأشداء .. آل الفطنة الخبيثة والحكمة الشيطانية ، أو كان بطلها مجهولا .. مبهما .. مجرد نكرة ،لم أتبين مثله من قبل .. ولم يعرفه أحد ، ولربما لم يعرف هو نفسه ..

ولكن بالنهاية .. نسجت له قصة ، وحيكت لحياته حكاية ، فأصبح معنى من لامعنى .. وجود من اللاوجود ، إنه قصة من اللاقصة..

ومهما كان البطل .. فله قصة ، فربما كان راعى أغنام فى الصحراء .. شغله العبث بحبات الرمل ومداعبة الحصى ، أو مقامر .. لاه .. فى حانة ليس بها إلا السكارى والمخمورين ، أو قط فى صندوق قمامة .. يبحث عن كسرة خبز .. أو قضمة لحم ، أو كان برغوثا تائها على كتف شحاذ مجذوب .. أضاعته وشائج وعجيج الطريق ، أو عبرة مزيفة على وجنة إمرأة لعوب .. بين أحضان راوى القصة ..

وتلك هى القصة ..

قصة سمعناها وسنظل نسمعها .. عبر الأثير والموجات ، فى الأحلام والرؤى والكوابيس ، عبر النسيج والنشيج والوشائج ، عبر العبير والغدير والصليل ، فى الأوردة والعروق ، فى خطوط الوجه والتجاعيد .. وتحولات

الشيب ، على صفحات المرآة .. والزجاج المكسور ، فى الغيض والفيض .. فى كل شيئ .. واللاشيئ ..

ولكل شيئ قصة .. ولها بطلها هو القصة ، به نسجت قصة ، ولأجله صنعت قصة ، ولأجله مزقت قصة ..

للأشجار و الطرق والأرصفة قصة ، وللثرى والحصى قصة ، وللأوطان قصة ، للب الأرض وأثقالها قصة ، وللجراثيم تحت مياه المستنقعات قصة ، وللضوارى فى الغابات الموغلة قصة ، وللسرمد فى البحار قصة ، للأوراق والأقلام والأحبار البالية قصة ..

ولأصل الحكاية قصة ، وللنسخة المحرفة قصة ، للعلماء والجهال قصة ، للحروف المرتبة والمنثورة فى القمامة قصة ، للحلم والوهم والأمل واليأس والوصول والنجاح والفشل .. قصة ، وللحقيقة والزيف قصة ، للكفر والإيمان والعناد والرحمة .. قصة

للتتام والكمال والجمال قصة ، للأن والأوان والأبد والزمان قصة ، وللماضى والحاضر والمستقبل قصة ، للصوت والصمت والصخب والعجيج والهدوء قصة ،

للمغادرين والمتلاقين قصة ، للتجميع والتفريق والتشكيل والتمزيق والشتات قصة ..

للأجداث والموتى قصة ، للرمم العفنة والجثث المتحللة قصة ، للأثير والعبير والكهرباء والحرارة والمغناطيسية والبروتون والفوتون قصة ، للكون قصة ، وللوجود والعدم قصة

لأدم وطوفان نوح ونار إبراهيم قصة ..

وليوسف كانت قصة ..

ولله قصة ..

....

ولى ولك قصة ، أنا قصة .. ولست بقصة ، لأنتى وعبرتى وشجونى قصة ، لهزلى وجدى قصة ، ولحكايا رحلتى قصة ..

وللقصة مع القصة .. قصة .. وبدونها قصة ، وإنما فى القصة قصة ، ورغم سوء قصتى فهى بالنهاية قصة ، ولأكون قصة .. كتبت قصة ..

قصتى أصبحت شعرا .. ولكنى قصدت بها قصة ، وتلك قصتى أنى صنعت قصة ..

ولظروف القصة .. قصة ، فلأنى سأنام .. سأنهى سريعا القصة ، ولعدم وجود ورقة أو قلم .. فاتتنى فكرة قصة ، ولخوفى ألا تعجبكم ..لم أكتب القصة ، وأعتذر .. فرأسى مخدور ومخمور ، فلن أكمل القصة ، والحشو وقلة الخبرة .. أضاع عمق القصة ..

ضاع الورق .. فضاعت القصة ، ونفذ صبرى .. فضاعت الفكرة والقصة ، وأستجدى حالة .. لأكَون قصة ، وأحداث أجاج ومعبرة .. ولكن لا تصلح قصة ، وليس لى " واسطة " .. فلن تنشر القصة ، وستبقى مجرد قصة .. ضاعت الأفكار .. وإنفلت زمامها ، وتاهت فى لجاج كلمة قصة .. وتكرار كلمة قصة .. مللت كلمة قصة .. لن أكتب القصة !! ..

* * *

تمت بحمد الله ...

مؤسسة الأمة العربية
للنشر والتوزيع

مؤسسة الأمة العربية
للنشر والتوزيع

مجموعة قصصية

أستانجلينا

وهنا تذكر مصر..
تذكر إخوته وأمه العجوز الشيباء..
ترى أين طافت بهم الدنيا ؟..
لقد تاق شوقا لرؤياهم .. والتحصن بأحضانهم..
ترى ماذا فعلت عشرون عاما بهم ؟..
....
تنهد تنهيدة عميقة..
وتنبه إلى الترانزستور يشدو بأغان غربية..
لقد تاه صوت أم كلثوم عبر الأثير..
كما تاهت مصر فى فؤاده..
وذاب هو فى بلاد الغربة..
تتخطفه شجون الإغتراب والفرقة..